ثاني السّويدي

الدّيزل

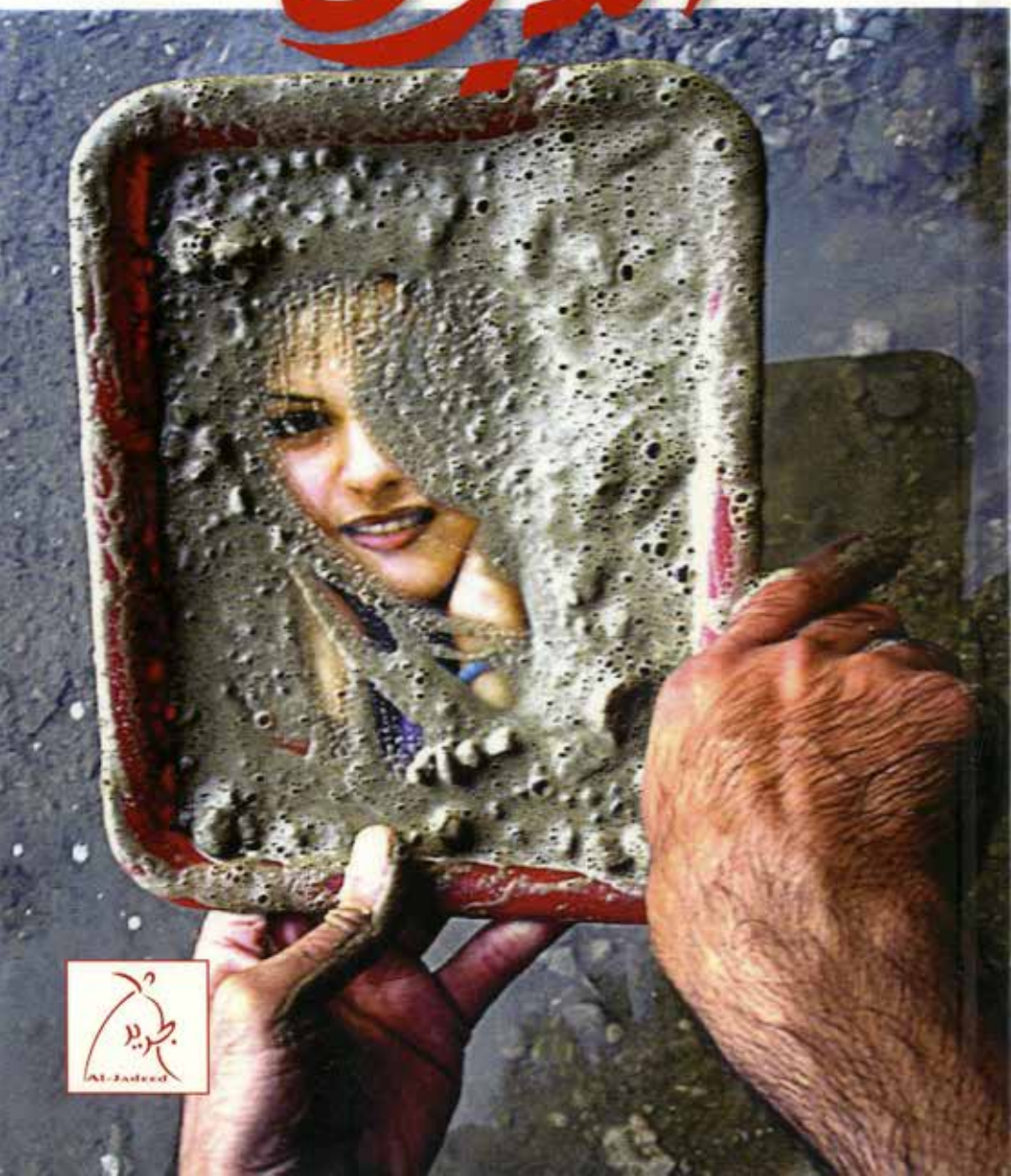

الجديد
Al-Jadeed

ثاني السّويدي

الدّيزل

الطبعة العربية السادسة

بيروت ـ ربيع ٢٠١١

ISBN: 9953-11-037-9

صندوق بريد: ١١/٥٢٢٢ بيروت ـ لبنان

هـــــاتـــــف: ٠٠٩٦١١٧٣٩٨٥٠

Aljadeed@cyberia.net.lb

thaniy@hotmail.com

دار الجديد

I

إنّني هُنا منذُ أنْ وُلِدْتُ، ولحظةٌ صغيرةٌ هي التي تفصِلُني عن الموت، أليسَ هذا صحيحًا؟

حين مات والدي، كُنتُ أرى سكراتِ الموتِ تغفو على وجهِهِ المُلَوّن، أمّا أنتم فلا تُجيدون سوى التّعامل مع الموتى في المسجد، بعد أن تُسَلَّمَ روحُهم إلى السّماء.

أجل هذه هي الحقيقةُ يا جاري، فأنا مُجَفَّفٌ بدمع والدي، كانت آخرَ صورةٍ له هي ابتسامةُ مُحَيّاه، كان يُوَجِّهُها إليَّ، وكأنّه يُريد أنْ يمسَحَ عنّي خطيئةً لاحقة.

تقول أُختي:

إنّه في صبيحةِ أحدِ الأيّام، في مَطْلع شَوّال، زُفَّ إلى والدي خَبَرُ ولادتي، كان عائدًا في ثيابِهِ المُحْتَرقةِ بالبحر... كان ثوبُ الصّيّادِ الجميلُ يُعَبِّرُ عن فرحَتِهِ، أخذَ والدي يتدحرجُ ويصرُخُ بصوتٍ

عالٍ: إنَّ القَدَمَ الحافيةَ هي التي يُعطيها اللَّهُ كُلَّ شيءٍ تتمنّاه.

لم يكن يُريدُ سوى ذَكَرٍ صغيرٍ، لقد ظلَّ عُقْمُ زوجتِهِ بعدَ ولادةِ أُختي مُتمرِّدًا كجُثّة. تَرَكَ لها الاختيارَ ما بينَ الموتِ والحياة، لكنّه كانَ يرفضُ هذا العُقْمَ، ويصنعُ من الرِّمالِ أعشابًا ستجعلُ العُقْمَ جُثَّةً مُسَيَّرةً باتّجاهِ ذَكَرٍ؛ لقد أحسَّ لحظتَها أنَّ اللّيالي الصاخبةَ قد ذهبت.

ومع الزّمنِ بدأ بيتُنا المُخَرَّبُ يتحوّلُ إلى مدينةٍ، أعلنه والدي زَنْزانَتَهُ، أعطاهُ من الفوضى والغضبِ أُسسًا لم تُعْطِها الطّبيعةُ للصخرِ، وبدأتْ تنمو مع الجُدرانِ والنوافِذِ والأبواب.

أُحِسُّ أنّني أتحدّثُ معك بلهجةٍ إلهيّة، لا أدري لماذا أنا هكذا اليوم.

قبل أنْ أُكمِلَ أربعينَ يومًا بليلةٍ، جاء والدي مُتَسَلِّلاً إلى فراشِ أُمّي، كانت أُختي تبلُغُ من العُمْرِ سبعَ سنواتٍ، وضعَ والدي يدَهُ على رأسِ والدتي ثُمَّ حدّثها قائلاً: ألا تعتقدين أنَّ هذا هو فَجْرُنا الأوّلُ بعدَ الولادة؟ لم تَرُدَّ عليه، فيما ذَهَبَ والدي يبحثُ عن أعشابٍ تُعيدُ لها الحياة.

ماذا أقولُ لكَ أيّها السّيّدُ الجارُ، فُكلُّ آهاتِ هذا العالَمِ المُصْطَنَعَةِ تصرُخُ من تَعَبِ حُطامِها. أمّا آهاتي فتصرُخُ من جنونِ تَعبِها زمنًا نجهلُهُ ويجهلُنا، مشلولَ القدمَيْن واليدَيْن، لا يأكلُ سوى ثمارِ

التّيه، لسَوْفَ يقضي معنا أعمارَنا يضحكُ من ثنايا زُمرةٍ راقصةٍ، لا تخشى. من يَعْلَم، رُبّما يحملُنا لنسكُنَ جهةً أُخرى من هذا الكونِ نُقابِلُ فيها الزّمَنَ بالقَدْرِ نفسِه من الآهاتِ، ونجعلُها تضحَكُ حتّى تَنْفَد.

لِمَ لا تقولُ شيئًا؟

•

II

أراكَ مشدودًا إلى حكايتي كثيرًا، لا فَرْقَ بينَكَ وبين أُمِّكَ، كانت أكثرَ النّساءِ بكاءً على والدتي. أتَدرِي؟ لَمْ أُفكّرْ يومًا وأنا في قِماطي أنّني سأكونُ هذا الإنسانَ، ما أسهلَ الحياةَ حين تكون بلا إرادة! قَيْدٌ يهبط لك من غيمةٍ كبيرةٍ كبَهْلوان.

– ... ...

ما لك تجولُ بلسانِكِ هكذا، سأترُكُ هذا الشُّبّاك مفتوحًا أمامي وأُفرغُ صوتي في جبهَتِكَ المُغْلَقَةِ بصورةِ الخثاقِ، فهي تُذَكِّرُني بشيءٍ قد يكونُ مُهمًّا بالنِّسبةِ لك.

مرَّةً نَشَرَ والدي على جدارِ بيتنا سَيْلاً من لحم الخثاق كان يُجَفِّفُهُ ليبيعَهُ في السوق. توقَّفَ عند مدخلِ البيتِ ولم يجدْ هذا السَّيل، أعلن والدي حينَها احتجاجَهُ الغاضبَ على مَنْ سَرَقَ الخثاقَ المُجَفَّفَ. لقد رأتهم أُختي يحمِلون زجاجاتٍ شاذّةً تُشبِهُ لونَ الشّمس. مجموعةً مِمّن يرفضون ذكورَتَهم، يربطونَ ألسِنَتَهُم بلغةٍ

نسائيّةٍ، يُحرّكون أجسادَهُم كما لو كانوا خارجين من اندفاعاتٍ عميقة.

إختبأت أُختي، وظلّت مُختبئةً منذُ تلك اللحظة...

كانت أناملُهم تتحرّكُ كما لو أنّها ملائكةٌ صغار، وبدأوا يُفَكِّكونَ الخثاقَ ليطردوا من بيتِنا رائحةَ البحرِ. ظنّت أُختي أنّهم عناكبُ تختبئُ في جلْدِ بَشَر، لقد سمعتْ من والدتي أنَّ العناكبَ تأكُلُ الفتياتِ اللواتي يقترِبْنَ من البحرِ، لذلك ظنَّت أنَّ العناكِبَ ممّنْ أكلتْ فتياتٍ ذواتِ إرادةٍ قويّة، استطعن أنْ يُوَجِّهْنَ العنٰاكبَ إلى حيثُ يُرِدْنَ، وحينَ أخبرت كُلُّ أُمٍّ ابنتَها عن هذه الحكايةِ لم تَجِدِ العناكبُ ما تأكُلُهُ، وحيثُ إنَّ الأرواحَ البشريّةَ اختلطت بأرواحِ العناكبِ، وأصبحت مُكوِّناتُ المعدةِ خيوطًا مُشتركةً، ولتَفَوُّقِ نسبةِ الخيوطِ البشريّةِ غَيّرتِ العناكبُ وجْبَتَها، وبدأت تبحثُ عن الخثاقِ، وحين علمتْ أنَّ والدي قد سَرَقَها، فتحتْ بابَ البحرِ، ثُمَّ أوصَدَتْهُ قليلاً للعودةِ كي لا يراهُ البحّارةُ مفتوحًا فيَدْخُلوا البحرَ منه.

أحسّت أُختي أنَّ المسافةَ بينَها وبينَهم مسافةٌ زمنيّةٌ، قامتْ ببطءٍ، وجدت سِرْوالَها مشطورًا، وأبسطُ من ذلك أنَّ صوتَ الانشطارِ كَوَّنَ ريحًا أيقظتْ أوّلَ امرأةٍ في حياتِها، أطبقتْ عينَيْها وأمسكت بسروالِها مُحاولةً سَتْرَ عَوْرَتِها، أحسّت لأوّلِ مرّةٍ بلذّةِ أصابِعِها.

لم تَسْتَفِقْ إلاّ والعناكِبُ تدور حولي، وتَضَعُ أيديها على رأسي كَرَجُلٍ يُبارِكُ زوجَتَهُ، قائلةً لي: إنْ لَمْ تَسْتَطِعْ أنْ تَهْزِمَ روحَكَ

فعليكَ بهزيمةِ الجسدِ، ثُمّ رحلوا.

لم تَكُنْ هذه المأساةُ كبيرةً بالنّسبةِ لوالدي، فهو لم يخسرْ سوى بعض الملح وبعض الجُهْد بل مأساةُ ثلاثِ نساء من جيرانِنا حيثُ تَوَحَّمْنَ برائحةِ الخثاقِ، وعندَ الوَضْعِ ظهرتْ صورةُ الخثاقِ على جباه مواليدِهِنَّ.

نعم هي الحقيقةُ، ولتَعْلَمْ أنَّ حِبْرَ الخثاقِ الأسودَ بقيَ في بطن أُمِّكَ، ولم تَتَلَوّثْ أنتَ به، فخرجتَ هكذا من الوهلةِ الأولى، رجلاً يُفَجِّرُ البياضَ في روحِهِ.

يا صاحبي:

كُلُّ بطونِ الأُمّهاتِ مُتَحَجِّرة، تُطْلقُنا كأمواجٍ عاتيةٍ تصرخُ، وحين نعرِفُ سِرَّ القِماطِ، ينزِفُ من أوردتِنا عزاءُ الانطلاقِ. كُتِبَ علينا أنْ نعيشَ ثلاثَ مراحِلَ روحيّةٍ في قبورِ أُمّهاتِنا تلك التي يُهديها اللّهُ غُرَفًا للأجِنّةِ، نحتفِلُ داخِلَها بطقوسٍ دمويّةٍ، نُفَتِّشُ عن الحُبِّ فلا نرى سوى الجنسِ وَوَجْهِ الأُمِّ الأسفلِ والجسدِ الغليظِ بقلبِهِ الأعور، وحين نخرُجُ من هذا الوجهِ يُؤَذِّنُ العالَمُ فينا، وتَتَوَهَّجُ الشّوارعُ، وسَرعانَ ما نَلْبَسُ فُستانَنا الأبيضَ أربعينَ يومًا ثُمَّ ننتَقِلُ لمرحلةِ ما بعد الفُستان، مرحلةٍ مُريبةٍ ولا شكَّ، مُدَرَّبَةٍ كأنّها كائنٌ أُسطوريّ. ترعشُ أجسادُنا بالألوانِ المُتناقضةِ ويكونُ همُّنا الوحيدُ هو انتعاشَ الذّاكرةِ، أمّا القبرُ الأخيرُ يا صاحبي فهو رحلةٌ لا نعرِفُ اتِّجاهَ شوارِعِها، لكنَّ ضوءَها الأسودَ يقعُ على لُغةِ المَوْت.

•

III

أتعرِفُ يا صاحبي إنَّ بيتَنا الصّغيرَ عَقَدَ قِرانَهُ بأُختي بعَقْدٍ سرّيٍّ دون أنْ يتمكَّن أحدٌ من معرفةِ ذلك، وهي مُسْتَسْلِمَةٌ لهذا العِقابِ الذي لا يستطيعُ أحدٌ أنْ يُحَدِّدَ مكانَهُ، سمعتُها مرّةً تُخاطِبُ دارَنا بصراحةٍ عاجزة.

تَفْتَحُ له لُغَةَ القَصَصِ الوهميّةِ المُتْلَفَةَ بالحُبِّ، كان ذلك، دائمًا في فتراتٍ قصيرةٍ، وغالبًا عند الضُّحى.

الغريبُ في ذلك أنّها في يومٍ من الأيّامِ قرّرتْ أنْ تنامَ على حافّةِ الجدار. وعلى المكانِ نفسِهِ الذي وَقَفَتْ عليه العناكبُ، ظنَّتْ أنّها قد تَشُمُّ رائحةَ الخثاقِ المُبَعْثَرَةَ في الهواءِ السّابقِ، ثُمَّ تَتَوَحَّمُ به وتَلِدُ جدارًا أسودَ، وفَعَلَتْ، لكنّها وَلَدَت امرأةً مُعَلّقَةً في جوفِها، تنتظرُ نَفْخَ الرّوحِ؛ كُلُّ الأطفالِ الذين في عُمرِها تزوّجوا، لكنّها وجدتْ حلاًّ آخرَ في النّهايةِ، لقد ذهبتْ إلى البحرِ تنتظرُ أنْ يأتيَ أحدُ العناكِبِ ويلتَهِمَها. حينَها قد تَجِدُ زوجًا في أعماقِهِ. تقدّمت

نحوَ الماءِ قليلاً، ابتلّتْ قدماها، تقدّمتْ حتّى منتَصَفِ جسدِها، كان ماءُ البحرِ دافئًا والقمرُ يُلقي خُطْبةً حولَ ذِروةِ الجسد، أحسّت أنَّ ماءَ البحرِ الدافئَ يُثَرْثِرُ بين فَخذَيْها. أغمضت عَيْنَيْها فترةً طويلة. شيءٌ ما ينزِفُ منها، نَظَرَتْ إلى أسفلِ قَدَمَيْها، وجدتْ كومةً من الأسماكِ تدورُ حولَها، ظنّت أنَّ هذه الأسماكَ أطفالُها، خرجتْ من البحرِ حاملةً أضْلُعَ فَرَحِها تصرخُ: يُمكنني أنْ أتزوّجَ أيَّ شيءٍ على وجهِ الأرض، لأنّني مُختلفةٌ عن نساءِ العالَمِ، لأنّني أَلِدُ من دونِ أنْ أحْمل.

حَمَلَتْ نفسَها إلى البيتِ، رأتْ عناكبَ صغيرةً تبني بيوتًا من الطّينِ والحجارةِ، بينما النّاسُ تَهُدُّ بيوتَها، لا تُوجدُ هُناكَ أراضٍ كلُّها خرابٌ، لأنَّ العناكِبَ وَجْهُ الحضارةِ الآخرُ في بيوتِنا.

تذكّرَتْ شيئًا مُهِمًّا، تذكّرتْ أنَّ أُمّها قد أسمَتْها وهي لم تُسَمِّ للآن أبناءَها. حَمَلَتْ قدمَيْها على وَجَعِ الرّيحِ، وبكُلِّ نرجسيّةٍ أطلقتْ نفسَها قطعةَ هواءٍ نحوَ البحر.

تقدّمَتْ تجاهَ المياهِ حتّى ردفَيْها، فكان ما كان في المرّةِ الأُولى، لكنَّ أبناءَها الجُدُد لهم ألوانٌ مُخْتَلِفَةٌ عن إخوانِهم السّابقين، ظنّت أنّ ذلكَ يرجِعُ إلى نوع الموجةِ التي عاشَرَتْها فوقَ فكرةِ البحرِ، وقفتْ في مكانِها حائرةً، ثُمَّ أعطت لكُلِّ سمكةٍ اسمًا من أسماء البرّ.

أنتِ اسمُكِ... وأنتِ، وأنتِ...

وأنتِ...

أعطيتُكُم اسمي، لأنّي أُحِسُّ بأنّني أكبرُ وأهمُّ من أبيكُم، هذا البحرِ النّاشفِ من الدّاخِلِ المُبْتَلِّ بحيويّتهِ المُزَيّفَةِ، أعودُ بكم إلى أصلِكُم الأوّلِ، حيثُ كانتِ البدايةُ تحتفي بنَسَبِ الأُنثى لا الذَّكَر، واليومَ أعطيتُكُم اسمي كي تفرحوا به تحتَ شلّالاتِ هذا الماء.

ثُمَّ نظرتْ إلى البحرِ، فرأتْهُ أبًا مُستقيمًا، فهمستْ له سأهزِمُكَ! وقد اعتبرَ البحرُ هذا التَّصرُّفَ سلوكًا سيّئًا لأنّهُ الوحيدُ الذي يَمْلِكُ حقَّ الأسماءِ، ويرفُضُ عادةً إطلاقَ البرّيّينَ أسماءَهُمُ على مخلوقاته.

أراك غدًا يا زوجي العزيز، هكذا قالتْ له ثُمَّ مَضَتْ، وكُلّما ذهبتِ الشّمْسُ إلى فراشِها، حصلتْ أُختي على حقِّها من العنايةِ الإلهيّةِ، حتى بدأَ اليأسُ يموتُ قليلاً، إلاَّ أنّه عندما انتهت الأسماءُ البرّيّةُ الموجودةُ في ذاكرةِ الأسماءِ البشريّةِ وجدتْ كثيرًا من أبنائِها لم يَحْصلوا على حَقِّهم في الاسم وهي ترفُضُ التّكرار.

فأصرّت أنْ تنامَ ليلةً كاملةً مع البحر، لكنّها تردّدت بعد ذلك، وامتنعت تمامًا، واعتبرت تَجْرِبَتَها السّابقة معصيةً دينيّة، وأطلقتْ على أبنائِها اسم الخطايا المُلَوّنة.

ما بالُكَ ترتَعِشُ هكذا، ما هذا إلاَّ حُلُمٌ صغيرٌ فوقَ سفينةٍ مُقْفَلٌ

بابُ غُرفتِها، فنامتْ مُستلقيةً خارجَ الدّار إلى جانبِ سفينةٍ لا تعرِفُ اسمَها.

هذه الغرفةُ هي اللُّغْزُ، غُرفةُ أُختي، غرفةُ والدتي، سريرٌ خشبيٌّ صغيرٌ لا يحمِلُ سوى بشريٍّ واحدٍ فقط وكتلةِ هواءٍ تُوقِظُهُ كُلَّ صباح كي يُعيدَ يَوْمَه.

•

IV

كانتْ بلدتُنا بسيطةً، وما زالتْ حتّى الآنَ يتخمّرُ فيها أملُ الشّواطئِ حينَ يرى بيوتَ الفقراءِ تفنى، هذه البلدةُ، مِثْل لسانِكَ يا صاحبي، كُلُّ بيوتِها وجُدْرانِها تشهدُ أنَّ أُذُني تسلّقَتْ جدارَ الصّمت خلفَ البيوت، عَرَفَتْ أسرارَها من ثقوبها الحقيقيّةِ، ونرجسيّةِ الكهرباءِ الجديدة.

– ... ...

– أتضحكُ؟ لا بُدَّ أنَّ مسألةَ الكهرباءِ هذه لا تُعْجِبُك.

أتعرفُ أنَّ ذلك البيتَ الذي مَلَكَ أوّلَ نقطةِ كهرباءٍ يعمَلُ صاحبُهُ في إحدى جهاتِ هذا العالَم، رأيتُهُ قبل أيّامٍ شاحبَ الوجهِ، تذكّرْتُ السّنينَ الطويلةَ التي أمضيتُها تحتَ ضوء بيتِه، والسّماءُ السّوداءُ تشهدُ على ذلك، كُنْتُ أرى الضّوءَ يخرُجُ من نافذةٍ صغيرةٍ في بيتٍ بُنِيَ من الطّينِ، هزيلٍ رغم طول جدرانه؛ وحين يأتي اللّيلُ رَطْبًا، باستثناءِ أشياءَ صغيرةٍ مُخْتَلِطَةٍ بالرّملِ، كانت يَدَايَ

تلعبُ بهذهِ الأشياءِ. ومرّةً بينما كُنْتُ أمسحُ يَدَيَّ بهذهِ الأشياءِ سمعتُ الرّجُلَ يقولُ لزوجتِهِ بصوتٍ خفيف:

- اسمعي، إنْ لم تنقُلي فراشَكِ إلى جانبي وتتوسّدي هذا الصّدْرَ ساعةً سأنْفَجِرُ، وإلاّ سأجيءُ بأُمِّكِ مكانَكِ، وإنْ لم تأتِ أذهبْ أنا لسحبِها من تحتِ سروالِ أبيكِ. عَلّمنا الدّينُ أنْ نهجُرَ المرأةَ، لا أن تهجُرَنا.

صمتَ قليلاً ثُمّ قال:

- هيّا تعالي، لقد أطفأتُ النّور. الآنَ يُمكنني أنْ أنضَمَّ إلى جسدِكِ. لأوّلِ مرّةٍ أدركتُ أنّ في جسدِكِ عيبًا وإلاّ لما رفضتِ مُشاركتي الفراشَ في النّور.

وبعد ليلتَيْن كُنْتُ أعبرُ ممرًّا ضيّقًا يتمدّد بين أزقّةِ البيوتِ الفقيرةِ، فرأيتُ الرّجُلَ نفسَهُ يسحَبُ زوجَتَهُ في الظّلامِ ويدْخُلُ بها بيتًا مُمَزّقًا، تراجعتُ قليلاً للخلفِ ثُمَّ سمعتُ الزّوجةَ تقولُ لأُمِّها:

- لقد حاولَ أنْ يُمارِسَ الشّذوذَ معي.

صرختِ الأُمُّ في وجهِهِ: يا كافر.

بينما خَرَجَ الرّجُلُ مُرتبكًا وأعادتِ الأُمُّ صراخَها:

- إذا كان أبوكِ مشلولَ القَدمَيْن فلأُمِّكِ أربعةُ أرجلٍ، سأتبعُ هذا الرّجلَ ليعرِفَ نفسَه، سأفضَحُهُ بين الأهالي.

لم تكن الأُمُّ تبلُغُ من العُمْرِ سوى ثلاثينَ عامًا، بينما البنتُ في حدودِ الخمسةَ عَشَرَ ربيعًا، تَبِعتُ الأُمَّ مُتسلّلاً حتّى وصلتْ إلى

بيتِ الزّوجِ، ثُمَّ قامتْ ونَزَعَت الثّيابَ عن جسدِها، وأمسكت عصًا صغيرةً وَضَعَتْها في فمِها فتقدّم الرّجُلُ الكهربائيُّ مائلاً حتّى...

هذه دواخِلُ بلدتِنا، تلكَ الأيّامَ لم يُهِمَّهم وصولُ الكهرباءِ بقَدْرِ ما همّهم المذياعُ الذي وُضِعَ في المقهى الشعبّي للبلدةِ والذي جَلَبَ لصاحبِ المقهى أموالاً من أكوابِ الشّاي، لقد أحضرَ صاحبُ المقهى المذياعَ ليستقطبَ إليهِ النّاسَ، لم يكن يعلَمُ أنّه سيُغَيِّرُ خُطَاهم لتصبحَ من البيتِ إلى المقهى بدلاً من البيتِ إلى المسجد.

•

V

حين بلغتُ سنَّ الخامسةَ عشرةَ قُلْتُ لنفسي: لَعَنَ اللَّهُ هذه البلدةَ، لقد أخذتني من داخلي، ورمتْ بي إلى خارجي المُطْلق.

لا تنظُرْ إلى الوقتِ فهذا المسجدُ الذي نحنُ فيه الآن هو الحقيقةُ المُعْلنةُ التي يراها النّاسُ، بينما أراهُ بشكلٍ آخرَ. لقد أنقذني هذا المسجدُ من اختياراتي القادمةِ، ففي إحدى اللّيالي طردَني والدي لأنّي وصلتُ البيتَ متأخّرًا بعدَ صلاةِ العشاءِ، فما كان لي من مأوىً أنامُ فيه سوى المسجدِ كعابري السّبيل. ذهبتُ إليهِ. كان المُؤذّنُ وحيدًا تلكَ اللّيلةَ نائمًا، استيقظَ لحظةَ وصولي، عاتبني على دخولي المسجدَ بقدمي اليُسرى. كان في الأربعينَ، عيناهُ واسعتان وشفتاهُ تمتدّانِ نحو الأُفقِ الظّلاميّ بكُلِّ شراسةٍ، كُنْتُ أقلَّ منه سوادًا.

سألني:

- ابنُ مَنْ أنت؟

قلتُ:

- ابنُهُ.

أجلسني بجانِبِهِ وقال لي:

- إنْ كنتَ تُريدُ النّومَ هُنا اللّيلة فعليكَ أنْ تدفَعَ مبلغًا من المالِ لعابرِ سبيل ينامُ في أحدِ أركانِ المسجد.

قلتُ له: لا تُوجَدُ لديَّ أيّةُ نقود.

قال: لا بُدَّ من معروفٍ تُقَدِّمُهُ لذلك العابرِ ويرضى.

ثُمَّ ذهبَ لذلك العابرِ، حدّثَهُ وجلسَ مكانَهُ، فأتى العابرُ، مَسَحَ على رأسي، مَدَّ يدَيْه لرقبتي ثُمَّ صدري، وقال لي: هل سمعتَ بالفضيلة؟

قلتُ: نعم.

قال: ورائحةُ الفضيلة؟

قلت: لا أعرف.

من هنا كانت بدايتي يا صاحبي.

•

VI

في فجرِ اللّيلةِ نَفْسِها كان والدي قادمًا يُصلّي في المسجدِ، لم يُفاجأ بوجودي هُناك، لأنّهُ يعلمُ أنّه لا مكانَ في البلدةِ آمنُ من هذا المسجد.

تردّدَ قليلاً في أنْ يُحدِّثني، ثُمَّ اتّجَهَ للمُؤَذِّنِ وهَمَسَ بهدوءٍ مُبتسمًا في أُذُنِهِ، فأشارَ المُؤَذِّنُ برأسِهِ إلى عابِرِ السّبيلِ، ثُمَّ تقدَّمَ نحوي، نَظَرَ إليَّ، حينئذٍ قام المُؤَذِّنُ ونادى للصلاة، فَتَقَدَّمَنا عابرُ السّبيلِ إمامًا، بينما وَقَفَ والدي والمُؤَذِّنُ وبعضُ أهلِ البلدة خلفَهُ، فيما جلستُ أنا بجانِبِ نافذةٍ صغيرةٍ أنظُرُ إليهم.

فُوجئتُ حينَ علمتُ أنَّ والدي قَدَّمَ لعابرِ السّبيلِ خدمة. حيثُ قرّرَ استضافَتَهُ في البيتِ لعدّةِ أيّام، ولم يكنْ في البيت سوى غرفتَيْن إحداهُما لأُختي ووالدي، والأُخرى لي مع عابر السّبيل. كم كان رائعًا ذلك العابرُ، قدّمَ لي من الحنانِ الأبويّ في أُسبوعٍ ما لم يُقَدِّمْهُ لي والدي طَوالَ حياتي مَعَهُ، وذهبَ العابرُ من دونِ أنْ

يستأذِنَنا. استيقظنا فجرَ ذلك النهارِ، ولم نَجِدْهُ فسألنا المُؤَذِّنَ عنه فقالَ إنّه ذَهَبَ لمسجدٍ آخرَ في بلدةٍ أُخرى.

•

VII

حين بلغتُ سِنَّ الثامنةَ عَشْرَةَ بدأتْ لقاءاتي بالأرامِلِ والمُطَلَّقاتِ اللّواتي يَزُرْنَ أُختي، لقد تكوّنَتْ بيني وبينَهُنَّ حياةٌ عائليّةٌ، رُغْمَ أنّهُنَّ من جنسٍ آخرَ مُختلفٍ في تكوينِهِ الجسديِّ فقط. وكانت هُناكَ امرأةٌ كُلّما أتتْ أشارتْ إلى نفسِها بالانصرافِ، وعندما كنتُ أراها كنتُ أحِسُّ أنَّ شهوَتي الذُّكوريَّةَ تقودُ جسدي لغريزةٍ أُخرى، تُذكِّرُني بذلكَ العابرِ الذي اختفى من حياتي فجأةً. وبينما كُنْتُ أنظُرُ لتلكِ المرأةِ من شُبّاكٍ صغيرٍ في الغرفةِ كانت النّساءُ يَجْلِسْنَ تحت شجرةِ لوزٍ عميقةِ الجذورِ. نهضتُ من مكاني بعدما رأيتُها وبدأتُ أنظُرُ إلى جسدي فترةً طويلةً، اقتربتُ من جلدي، اسْوَدَّ، فقرّرْتُ لحظَتَها أنْ أخْلُقَ لهذا الجسدِ تكوينًا جديدًا يُعيدُ الرّجُلَ إلى ذاكِرَتِهِ الحقيقيّةِ.

كان في اللّيلةِ المُقْبلةِ بعد ذلك اليومِ عُرْسٌ لأحدِ الأرامِلِ، عزلوا فيه الرِّجالَ لوحدِهِم والنّساءَ لوحدِهِنَّ. نادتني أُختي كي أجلِسَ مع صديقاتي المُطَلَّقاتِ والأرامِلِ. تردّدْتُ كثيرًا. وجدتُ في عيونِ

الرِّجالِ غَضَبًا هو في حقيقتِهِ غَيْرَةٌ ما، مَعَ ذلك لم أُمانِعْ، دخلتُ وجلستُ بينَهُنّ.

لم أُقابَلْ سوى بعاديّةٍ، ولم أُفاجأْ بذلك، وفجأةً فَسَخَتْ امرأةٌ بُرقُعها الأصفرَ المائِلَ نحو الذّهبِ، ثُمَّ وَقَفَتْ وأمسكتْ بيدي، طَلَبَتْ أنْ أرقُصَ مَعَها، تمنّعْتُ، لكنَّ تصفيقَ النِّساءِ المُرَتَّبَ والمُنْتَظِمَ شدّني.

كان إصرارًا فنِّيًّا منهنَّ، وفيما أنا أنظُرُ إلى تلكَ المرأةِ ذاتِها، أحسستُ بأنَّ ردفيَّ يحُكّانِ الأرضَ رقصًا. لم أجدْ نفسي إلاَّ وأنا وَسَطَ النّساءِ. في حين أنَّ رجُلاً من أهلِ البيتِ كان ينظُرُ إليَّ ويُحَرِّكُ شارِبَهُ لسببٍ لم أعْرِفْه. أحسستُ أنّني أملِكُ جسدَ امرأةٍ للمرّةِ الأُولى. لم يَعُدْ باستطاعتي أنّ أُقاوِمَ العُنْفَ الأُنثويَّ، كُلُّ جسدي بدأَ يتحرّكُ كما لو أنَّ اليَقَظَةَ استفاقت نحو المُطْلق.

لا أدري ماذا جرى في تلكَ اللّحظةِ، فقدتُ نفسي ووجدتُ جسدي وَسَطَ أزقّةِ بيوتٍ رمَّلَها أصحابُها، وما إنْ وجدتُ بيتًا مهجورًا حتَّى دخلتُ فيه، يُقال إنَّ ذلك البيتَ لرجلٍ من الباطنة تركَهُ بعدَ أنِ استسلمتْ مُعتقداتُهُ بوجودِ الجِنّ فيه. أحدُهُم قال إنّه أتى مسكونًا بهم.

وضعتُ قدمي في أوّل خُطوةٍ للدُّخولِ، كانتْ شجرةٌ كبيرةٌ تتوسّطُ ساحةَ البيتِ، استلقيتُ مُتّكِئًا على صدرِها الأسفلِ، كانت عيناي تُهَرْوِلانِ نحوَ السّماءِ، ثُمَّ ما تَلْبَثان أنْ تزحفا فوقَ الأرض.

لم يُصَدِّقْ أحدٌ ما شاهدتُهُ تلكَ اللّيلة.

شيخٌ رُبّما تعدّى المئةَ من عُمْرِهِ، يَلْبَسُ أشياءَ مُبَعْثَرَةً، لا أعرِفُ من أينَ يُمكِنُ الحصولُ عليها. لا يُمكنُ تمييزُها. بدأتُ أنظُرُ إلى الملابِسِ الغريبةِ. أحسستُ أنَّ نصفيَ الأسفلَ بدأ يرتفَعُ نحوَ السّماءِ، لقد كانوا أربعةَ رجالٍ يَشِعُّ من عيونِهِم بياضٌ غريبٌ تقدّموا مَعَ الشّيخِ. تأخّرَ واحدٌ عنهم، كان أحمرَ العينين، ذا أنفٍ جبليٍّ، لم يكن يرتدي شيئًا.

بدأوا يَلْتَفّونَ حولي، فيما الارتجافُ يُغطّي داخلي بشُحْنَةِ برد، حاولتُ القيامَ من مكاني، لم أستطعْ.

فجأةً حدّثني الشّيخُ قائلاً: أنتَ...

شيءٌ ما كان يحدُثُ في ذلكَ المكانِ، أصواتٌ نسائيّةٌ تُهَلِّلُ، مجموعةٌ من النّساءِ دَخَلْنَ البيتَ تَتَوَسَّطُهُنَّ امرأةٌ تَلْبَسُ الظّلامَ بعباءةٍ قديمةٍ. اقتَرَبْنَ منّي، وأكثرُهُنَّ اقترابًا كانت امرأةَ الظّلامِ التي جَلَسَتْ بينَ الشّيخ وبيني، ثُمَّ ما لَبِثَتِ النّساءُ أنْ بَدَأنَ يدُرْنَ حولَها وحولي. أصواتٌ غريبةٌ كانت تخرُجُ من البيتِ، أصواتُ حيواناتٍ بدأتْ تَتَداخَلُ مع أصواتِ النّساءِ. بَعْدَ قليلٍ، سرْبٌ من الغِربانِ حلَّقَ فوقَنا، لم أنتَبِهْ أنَّ الغِربانَ تحمِلُ غُرابًا ميّتًا ما لَبِثَتْ أنْ رَمَتْ به أمامي. تَقَدَّمَ الشّيخُ من الجُثَّةِ، ثُمَّ قَطَعَ رِجْلَها وطَلَبَ من امرأةِ الظّلامِ أنْ تَشْرَبَ دَمَها، فَرَفَضَتْ، فأمْسَكَ برأسها وَوَضَعَ وَجْهَها في الرّمل. أجبَرَها على أكلِ التُّراب المُخْتَلِطِ بالدّم.

بَعْدَ وقتٍ بدأتْ هذه الأسرابُ تختفي وبَقيَ الشّيخُ والمرأةُ وحدَهُما فقطْ، فيما أنا جالسٌ في مكاني مُحَدِّقًا. نَظَرَ إليَّ

الشّيخُ، ثُمَّ ما لبِثَ أنْ تَرَكَ المكانَ، بينما ظلّت المرأةُ مكانَها ساكنةً، فَكَّرْتُ في أنْ أكشِفَ سِرَّ هذه المرأةِ، تَرَدّدْتُ قليلاً، ثُمَّ اقتربتُ مِنها، كانت العباءةُ السّوداءُ تُغطّيها تمامًا، مَدَدْتُ يدي ورفعتُ العباءةَ عن وجهِها.

... لقد كانت جُثَّةَ أُمّي!

لم أستَطِعْ أنْ أتمالَكَ جسدي، رَكَضْتُ نحوَ البيتِ على هواءٍ ساخِنٍ، حتَّى وَصَلْتُ غرفةَ والدتي فوجدتُ صُندوقَها في زاويةِ الغُرْفَةِ. تَقَدّمْتُ نحوَهُ وفَتَحْتُهُ، فوجِئْتُ بوجودِ عباءةٍ سوداءَ كبيرةٍ، حَمَلْتُها ونَفَضْتُها فَسَقَطَتْ منها ثيابُ الشّيخ.

كأنَّ الدّنيا قد ذهبتْ بعقلي لحظَتَها، كُلُّ مرايا هذه الحياةِ أصبحتْ تحمِلُ وَشْمًا في جبهَتِها، لم تَمُتْ والدتي. هكذا صَرَخْتُ. اقتربتْ أُختي وأمسكتْ برأسي وهي تبكي في حينِ أنَّ والدي صَرَخَ فيها: أسْكتي هذا المجنون.

فقلتُ لهم: إنّها في بيتٍ قريب، لقد رأيتُها هُناكَ تحت السِّدْرة. خرجتُ أركضُ نحو ذلك البيتِ وهُما يركُضان ورائي ويصرُخان: ارجعْ، ارجعْ يا مجنون، وحين وصلتُ إلى البيتِ المهجورِ، كانت العباءةُ في مَحَلِّها، فيما الشجرةُ قَدِ اختفت.

دُهشوا معي، كُنْتُ مُتأكِّدًا أنّها عباءَتُها وأنَّ لها نسخةً في الصُّندوق. لم يَعِ والدي ذلك، فأمسَكَ بي وحَمَلني فوق ظهرِهِ وأخذني إلى أحدِ الأولياءِ، عندما دَخَلْنا إليه وَضَعَ الكتابَ أمامَهُ ويداهُ فوق رأسي، ثم قرأَهُ باصقًا على رأسي بعد كُلِّ كلمة.

رُبّما أصبحتُ في نظر والدي مجنونًا، لا أعرِفُ ماذا أصابني بعد قراءةِ الوليِّ على رأسي، في حين بدأتْ فكرةُ الغِناءِ تُسَيْطِرُ على ذهني.

لم تَرَ عيناياَ موتَها الموقَّتَ تلكَ الليلةَ، وإنّما كانت تُحَدِّقُ في طفولِتها، تذَكّرتُ أُمّي، كم هي مسكينةٌ هذه الأُمّ. أيقظني صوتُها فجأة!

سمعتها تقول: ... ...

أو رُبّما لم أسمَعْها.

أخذتُ نفسي وسحبتُ جسدي من البيتِ. كان الظّلامُ يخنُقُ الأزقَّة. طويلةٌ هي دروبنا، وفي كُلِّ فرع منها حجرٌ أو جبلٌ أو شيءٌ يُرعِبُ. شُهُبٌ كانت تتساقَطُ بكَثْرةٍ في جَوْفِ السّماء، لكنّها لم تستطعْ أنْ تُعَوِّضَ القمر. يُقالُ إنَّ أرضًا أُخرى سَرَقَتْه تلك اللّيلة، ورأس الغيمة. قال إنّه دَفَنَ نفسَه في نفسِه، أترى هل تُوجدُ أزقَّةٌ بهذا الشّكل في تلك السّماء... وإنْ مشينا فيها، فعلى ماذا نَتّكِئ؟

قالَ رأسُ الغيمة مرّة: إنَّ طُرُقَ السّماءِ غيرُ مُحاصرة. لذلك فعلى الإنسانِ أنْ يتَّكِئَ على جَسَدِه.

رأسُ الغيمة ليلَتَها كان هُناك في أحدِ الأزقّة، يظنُّهُ النّاسُ مجنونًا فقيرًا، حين اقتربتُ منه قال لي:

- تعال يا صديقي شاركني هذا الجنونَ الإلهيَّ. تعال نحترقْ

بعنفوانِ العنوانِ المفقود. هؤلاءِ البشرُ مُحَنّطون، يعرفونَ البحرَ والسّماءَ والمسجدَ، لكنّهم لم يسألوا أنفُسَهم يومًا لماذا يغرقون، لماذا لا يَتَعَوّدون العيشَ تحتَ الماءِ، وتتعوّدُ الأسماكُ العيشَ في البرّ. لماذا هذا التقييدُ والحصارُ الإلهيُّ؟ لماذا أعطى الرَّبُّ الجزءَ الأكبرَ من الأرضِ للأسماك. ولماذا يفوقُ عددُهُم البشرَ؟ قد يظنُّ النّاسُ أنَّ هذه إرادةٌ إلهيّةٌ هدفُها أنْ يأكلوا فقط. فجأةً سمعتُ صرخةً في البيتِ المُجاور.

امرأة تقولُ:

ليسَ هكذا أيُّها العاقل.

إلْتَفَتُّ، كانَ رأسُ الغيمة قد أمطَرَ واختفى. رَجَعْتُ إلى البيتِ، الفجرُ يقترِبُ من نافذَتِنا، رجلٌ كان يقفُ ويختلِطُ بالباب، لقد كان والدي، كان ينظُرُ إليَّ نظرةً تحمِلُ مشروعًا ما.

- ستذهبُ معي بعدَ قليلٍ للبحر. هكذا قال.

•

VIII

البحرُ، آه هذا البحرُ، كم وَدِدْتُ أنْ أركبَ هذا الجَمَلَ المائيَّ، أتموَّجَ فوق سَنامِهِ نحو رحلةٍ، لا أعرفُ إنْ كان شيءٌ من جلدِ أُختي باقيًا بعد أنْ سرقَهُ المِلْحُ وهي تبحثُ عن زوجٍ بحريّ.

– هيّا، سنذهبُ الآنَ، احملْ معي هذه الأشياءَ واتبعني.

الأزقَّةُ تتعرّى من اللّيل، واللّيلُ يتعرّى من النّهار، إلاَّ أنَّ هذا اللّيلَ رَفَضَ أنْ يتعرّى من جسدي. ترى هل سيعرفُ البحرُ بأنّها أُختي وينتقمُ منّي لأنّها طَلّقَتْهُ؟ لا أعتقد، فهواجسُ الظّلامِ السُفليِّ تكمُنُ في جسدِها أكثرَ من جسدي، هذا الذي يتلوّنُ كيفما يشاءُ، مرّةً أصْفَرَ، ومرّةً أسودَ، ومرّةً أحمرَ من شِدّةِ وقعةٍ ما أو ضَرْبةِ أحدِ الأصدقاءِ المُحَنَّطين بالبياضِ الأسمرِ اللاّذعِ، والذين يمتلِكونَ قلوبًا لا تميل.

إقتربنا من البحرِ، أحسستُ بدّقاتِ صدري ترقُصُ كما لو أنّها في عُرْس، كان قلبي يَخْفقُ بشكلٍ موسيقيٍّ، وضغطتْ يداي على

جانبي الأيمنِ. كان القلبُ يتحدّثُ بلُغَةِ الأجراسِ، ضَحِكْتُ وضَحِكْت.

إلتَفَت إليَّ والدي وقالَ دون أنْ يتحدّث: لماذا تَضْحك؟

- لا شيءَ سوى أنّني اكتشفتُ أنَّ قلبي يَقَعُ في الجانبِ الأيمن.

- ضَعِ الأشياءَ في الزّورق، هكذا، قالها بصُراخ بطيء. كان قُرَيدح ينتظرُنا في الزّورق، فهو شريكُ والدي في الزّورق، كان طويلَ القامةِ يميلُ إلى الأمامِ في مِشْيَتِهِ، كان صامتًا دائمًا، لهذا لم أتحدّث إليه.

البحرُ بدأ يأخُذُ الزّورقَ الصّغيرَ نحوَ أعماقِهِ السّطحيّةِ. كان لونُهُ ممزوجًا بالغروب، والفجرُ يميلُ إلى الحُمْرَةِ. رُبّما كان هذا اللّونُ المُوقّتُ احتفاءً بفَضِّ البحرِ لبكارةِ أُختي، إنّهُ دَمُها المُلَوّثُ بظهرِ والدي. كُلُّ آباءِ هذا الزّمن يفرِضونَ على بناتِهِم دَمَهم، يحتفلونَ به حين يسقُطُ في يدِ إمامِ مسجِدٍ، ويلعنونَهُ حين يسقُطُ في يد الشّيطان، رغم أنّهم يعرِفون من هو الإمامُ ومن هو الشّيطانُ ومدى العلاقَةِ الخفيّةِ بينَهما.

ذكّرني ذلك باعتقادٍ يسودُ في بلدتِنا حولَ إمامِ مسجدٍ أحبَّ مرّةً شيطانةً تُدعى بربكشان، كانت تخرُجُ له من الحروفِ المُعَلّقةِ في صدرِ المِحرابِ، فكان يتعمّدُ أنْ يُنهي الصّلاةَ بسرعة كي يَنْفَضَّ المُصَلّون ويلتقيَ مُنفردًا ببربكشان، حتّى إنّه تركَ زوجَتَهُ وأولادهُ فترةً طويلةً. وأحدُهم قال إنّها كانت تخرُجُ له بَعْدَ أنْ يقرأَ كلماتٍ معكوسةً لم يَكُنْ يَقْرأها إلاّ بعدَ أنْ يَنْفَضَّ المُصلّون تمامًا، لأنّه

يعلمُ أنّ بينَهم من هو أكثرُ إيمانًا منه، لذلك كان يخشى خروجَ بربكشان وقتَ قراءةِ الكلماتِ ومن ثَمَّ التصاقَها بذلكَ الشخص؛ طلّقَ زوجَتَه بعدَها، استمرَّ في عِشْقِ بربكشان.

ومرّةً بينما كان يَؤُمُّ النّاسَ، لم ينتبهْ أنَّ أحدَ المُصَلّين لم يَرْكَعْ ويَسْجُدْ مِثْلَ البقيّةِ حيثُ كان مُخْتلِفًا. وقفَ طويلاً قبلَ أنْ يركَعَ، لم يعرفِ الإمامُ بذلك، ولكنْ من وقِتها لم تخرُجْ له بربكشان، وما زالَ إلى الآنَ يمرُّ بين الأزقّةِ يبحثُ عنها، يقرأُ ما تَيَسَّرَ له معكوسًا كي تعودَ بربكشان، لكنّها لم تَعُدْ إلى يومنا هذا، هكذا هم يُفَكّرون، ولا أدري إلى أيّ مدًى يَصِلُ فهمُهُم ذلك.

قريدح ما زال صامتًا، يلتقي مع والدي في النّظرات. تتهامَسُ عيونُهُما ثم يلتَفِتان إليَّ، كانت مُؤَخِّرةُ الزّورق مكاني، بَرْدٌ طفيفٌ يُلامِسُ جسدي، بَرْدٌ يحملُ لونَ هواءِ السّواقي حينَ تدورُ. اليابسةُ كانت تُلَوِّحُ بيديها ونحنُ نبتعدُ عنها، كانت تُوَدِّعُ أحدًا منّا وكأنّها تراهُ للمرّةِ الأخيرة.

القريةُ نائمةٌ بأكملِها، المساجدُ عادةً تستيقظُ باكرًا، أمّا البيوتُ فكان يُزْعِجُها هذا الاستيقاظُ المُبَكِّر.

الشّاطئُ قَدَمُ البحرِ، وها نحنُ نبتَعِدُ عنها، استقامةُ البحرِ كانت تتحطّمُ قليلاً قليلاً.

قريدح ما زال صامتًا، مضى زمنٌ طويلٌ والبحرُ لم يَنْتَهِ.

ترى أين يَسْكُنُ هذا البحر؟!

قريدح ما زال صامتًا، لكنّه بينَ كُلِّ لحظةٍ وأُخرى يَحُكُّ رأسَهُ ويبتَسِمُ، يطعنُ البحرَ بمجذافِهِ، كان دَمُ البحرِ هو الماءَ نفسَه.

•

IX

سفينةٌ كانت تُعادِلُنا في خُطانا للبحرِ، كانتْ غريبةَ الشّكْلِ مُحَدّبَةً أو مُقوَّسةً. لم أستطعْ تحديدَ ذلك، فجأةً استدارتْ نحوَنا، وساعَدَها البحرُ كثيرًا حين شدّها من مُقَدِّمتها بسرعةٍ أكثر. بعد لحظاتٍ اقتربتِ السّفينةُ من قارِبِنا، بينما والدي وقريدح وقفا ينظُرانِ إليها بصمت.

بعدَ قليل ألقى أحدُ بحّارةِ السّفينةِ بحبلٍ إلى قريدح رَبَطَهُ في مُقَدِّمةِ القارِبِ ومضى يجرُّ الحبلَ حتى لاصَقَ السّفينة.

خَرَجَ صوتُ امرأةٍ تقول: لا تكنْ مجنونًا، فيما وَقَفَ رجلٌ فوق ظهر السّفينة، أمسكَ عباءةً بيضاءَ، ثُمَّ لفَّها على رأسِهِ، وركَعَ في اتّجاهِنا صامتًا. أمّا البحّارةُ فلقد قامَ كُلُّ واحدٍ منهم بنزعِ سِروالِهِ والوقوفِ إلى جانِبِ الرّجُلِ. أمسكَ الرّجُلُ لحظَتَها بعصاً طويلةٍ ومَرّرَها على قطعةِ لحمٍ زائدةٍ في أجسادِهِم. كانت مَيْتَةً، وبرُغْمِ موتِها كان يخرُجُ منها شُعاعٌ غريبٌ لم يجعَلْني

أستغربُ تمامًا. فهذا الشُّعاعُ كان انعكاسَ ضوءِ البَحْرِ فوقَ أجسادِهِم.

طَلَبَ الرّجلُ منّا بكُلِّ احترامٍ أنْ نصعَدَ سفينَتَهُم، فأصرَّ والدي على معرفةِ السّبب، فأجابَهُ الرّجل:

«نحنُ الآنَ على ظهرِ سفينةٍ منذُ سبعةٍ وعشرينَ عامًا، رجالٌ مَخْصيّون وأمرأةٌ تبلُغُ الآن الواحدةَ والسّبعينَ من عُمْرِها. وطيلةَ هذه الفترةِ نبحَثُ عن نهايةٍ لهذا البحر، حيثُ قيلَ لنا إنَّ هُناكَ حكيمًا يُمْكِنُ أنْ يُعالجِنَا من هذا الهَمِّ الذي نَحْمِلُه. أمّا المرأةُ فهي تبحَثُ عن صُرَّةٍ وضعت فيها رمادَ زوجِها. أضاعَتْها منذُ تلكَ الفترةِ، وقيلَ لها إنّ بإمكانِ هذا الحكيمِ أنْ يَجِدَ مكانَها، وفعلاً استطعنا الوصولَ إليه. لكنّه فَشِلَ في إيجادِ مخرجٍ لنا. أمّا المرأةُ، فقد نَصَحَتْنا بأنْ نبحَثَ عن شابٍّ لم يتجاوَزِ العشرينَ كي يُعانِقَ جسدَها الخشبيَّ بجسدِهِ الطريّ. ولقد انتبهَ أحدُ الرّجالِ إلى وجودِ شابٍّ معكُم في القارِبِ، ونحنُ الآن نتمنّى أنْ تُنَفِّذوا رغبةَ هذه المرأةِ لكي يكونَ للسّبعةِ والعشرين عامًا جدوى».

نَظَرَ الاثنان إليَّ نظرةَ فرحٍ وقال والدي:

- يبدو أنَّ نصيبَكَ في البحرِ أوفرُ حظًّا من هُنا.

- كَرّرَ الرّجُلُ: «ما رأيُكُما؟».

فما لَبِثَ والدي إلاّ أنْ حَمَلَني فوقَ كتفِهِ، ووضعني فوقَ السّفينةِ، وفيما أنا صامتٌ، أشار الرّجُلُ إلى غرفةٍ في الأسفل.

يُريداننني أن أُثبتَ فحولَتَهُما بجسدي مع امرأةٍ في الواحدةِ والسّبعين من عُمْرها.

– أمسكني الرّجلُ من يدي، ثم أخذني لمخزنٍ أسفلَ السّفينةِ وتركني.

كانت العتمةُ تملأُ المخزنَ، ومصباحٌ صغيرٌ عُلِّقَت على طَرَفِ أحدِ أضْلُعِهِ مرّةً أُخرى عباءةٌ سوداءُ تحتَها كومةٌ من جسدٍ، إنّها المرأةُ العجوزُ، وقفتُ في مكاني، ريثما تتحرّكُ هذه الجثّة. لكنّها لم تتحرّكْ. فكّرْتُ لو عُدْتُ إليهم وقلتُ لهم بأنّني قد انتهيتُ، لكنْ ماذا سيحدُثُ لو سألوا المرأةَ؟ هي حَيْرَةٌ بين إثباتِ فحولةِ والدي وعجزي عن تلبيةِ هذا النِّداء في جسدِه.

خُيِّلَ إليَّ أنَّ هذا الجسدَ الآنَ حافٍ من جِلْدِهِ، تتماسَكُ عظامُه لتبني شكلاً فقط، رائحةُ العباءةِ لم تكنْ غريبةً عن أنفي... اقتربتُ منها. مَدَدْتُ يديّ، ارتَجَفَتا، سَحَبْتُهما بعدَ ذلك وتراجَعْتُ نحوَ بابِ المخزنِ. تذكّرْتُ أُختي، كم هي مُغْتَرِبَةٌ هذه الأُسرةُ في جيوبِها! فجأةً فُتِحَ البابُ، دَخَلَ قريدح صامتًا، كعادَتِهِ لم يتحدّثْ، أمسكَ عباءةَ المرأةِ ووضَعَها فوقَ وجهي، لم أستطعْ رؤيةَ أيِّ شيءٍ بعد ذلك، حتى أتى أحدُهم وحملني، وإذ بوالدي مُسْتَلْقٍ في الزّورقِ على ظهرِهِ. نَزَلْتُ إليه، لم يتحدّثْ إليَّ، بينما بقيَ قريدح واقفًا فوق السفينةِ صامتًا، ثُمَّ أمسكَ بسكّينِهِ وقَطَعَ الحبلَ الواصلَ بيننا وبيْنَهم. خرجتِ المرأةُ من مخزنِها ووقفتْ فوق السّفينةِ ثُمَّ نفختْ باتّجاه الزّورق، كان والدي لحظَتَها يتنفّسُ بشكلٍ خاطئٍ

وبدأ وجهُهُ يتلوّنُ. هبّتْ عاصفةٌ قذفتْ به في البحرِ، بينما وقفتُ مُلَوِّحًا بيدي حتى سَقَطْتُ في الزّورقِ مُتوارِيًا.

•

X

سمعتُ صوتَ هديرِ ماءٍ وأقدامٍ تخبطُ الرّملَ، استفقتُ، وجدتُ نفسي في مكانٍ غريبٍ، وحولي كومةٌ من الرّجالِ يَلْبَسونَ أثوابًا بُنّيّةً، تتوسّطُ بطونَهم خناجرُ بيضاءُ، وعماماتٌ سوداءُ لَفّتْ رأسَ كُلِّ واحدٍ منهم. وامرأةٌ حامِلةٌ في يدَيْها جَرَّةَ ماء. كانتِ العماماتُ وكأنّها تُخَبِّئُ غيمةً فارغةً، والبطونُ تتمزّقُ من رائحةِ الخناجِرِ، كأنّهم وضعوها ليُثبتوا للعالَم أنَّ المَوْتَ يأتي من البَطْن. جَرَّةُ الماءِ كانت صفراءَ بلونِ الرّمْلِ، نُقِشَت بأصابِعِ امرأةٍ، هكذا تبدو للوهلةِ الأولى...

لم يتحدّثوا...!

نهضتُ أنفضُ الماءَ عن ثيابي، ومدى بصري نحوَ البحرِ. لقد سَرَقَ البحرُ والدي.

من أنتُم...؟

- لم يُجيبوا...

تقدَّمَ أحدُهم وأمسكَ بيدي وجرّني بهدوءٍ معه، ثم تقدّمهم وَمشَوا خلفنا، أمّا المرأةُ فوقفت مع جَرّتِها تَلْحَظُني من بعيد.

البُرْقُعُ الذي على وَجْهِها لم يُلْفِتِ انتباهي في المرّةِ الأُولى، إلاَّ أنَّ عينَيْها اجتازتا مراحِلَ البصرِ في داخلي.

نظرتُ إلى المُقَدِّمة، جبلٌ يمتدُّ شاهقًا على السّاحِلِ، ولسانُهُ يَرْتَطِمُ بأسفلِ البحرِ. كهوفٌ كثيرةٌ في صَدْرِ الجبلِ كرجُلٍ عظيمٍ له أكثرُ من فَمٍ. وقفَ الرّجلُ عند مَدْخَلِ كهفٍ كبيرٍ أسفلَ الجبل، فَخَرَجَ رجلٌ يُشبِهُهُم في ثيابِهِ إلاَّ أنّه يحمِلُ في يدِهِ اليُمنى عصًا تبدو أقوى من عِصيّهم، مِمّا يَدُلُّ على أنّه رجلٌ طاعنٌ في السِّنِّ، فهو، خوفًا من السَّماءِ، كان يتعلّقُ بالأرضِ بهذه العصا ويمشي نحوي. اقتربَ ثُمَّ مَدَّ عصاهُ وضَرَبَها بودٍّ على كتفي، وقتَها تقدَّمَ رجُلانِ يحملان شاةً صغيرةً وضعاها تحتَ قدميّ، ثم قامَ الرَّجُلُ المُسِنُّ بسحبِ خِنْجَرِهِ، وسحبَهُ بشراسةٍ على عُنُقِ الشَّاةِ، حتى انتشَرَ دمُها على ثيابي وطلبَ منّي أنْ أُمسِكَ طرفَ العصا، وسحبني مَعَهُ إلى داخِلِ الكهف.

بعدَ وقتٍ ليسَ بالطّويل، وفيما أنا جالسٌ في الكَهْف يَلُفُّني المُسنُّ ورجالُه، دَخَلَ الرّجلان اللّذان حملا الشّاةَ لذبحِها يحملانِ صينيّةً كبيرةً بها أرزٌّ وشاةٌ مشويّةٌ، تقدَّمَ المُسِنُّ وفتح كيسًا مربوطًا في حِزامِ الخِنْجر.

لاحظتُ أنَّ الجميعَ يحملونَ الكيسَ نفسَهُ.

تقدَّمَ المُسِنُّ وكُلُّ الرّجالِ، وبدأوا يملأون أكياسَهُم بالطّعامِ حتّى

فَرَغَ الطّعامُ تمامًا من أمامِهم، ثُمَّ خرجوا إلى بابِ الكهفِ وبدأوا يُطلِقونَ أصواتًا مُشْتَرَكَةً كعواءِ الذِّئابِ. استمرّوا هكذا فترةً قصيرةً، ونَفَخَ كُلُّ واحدٍ منهم في الكيس، ثُمَّ رَجَعوا ووضعوا الصّينيّةَ الفارغةَ أمامي، وسَكَبَ كُلُّ واحدٍ منهم بعضًا من كيسِهِ في الصّينيّة.

كُنْتُ جائعًا، مَدَدْتُ يدي، نظرتُ بِطَرفِ عيني إليهم، وجدتُهُم وقد وضعوا أياديَهمْ في الأكياسِ، وما إنْ أخذتُ لُقْمَةً حتّى رأيتُهم جميعًا يُخْرِجون أيديَهم مملوءةً بالطّعام ويقذِفُون بها في الصّينيّة.

تَكَرَّرَ المشهدُ عندَ كُلِّ لُقْمةٍ حتّى توقَّفْتُ عن الأكلِ، لحظَتَها بدأوا يأكُلون من أكياسِهِم حتّى أفرغوها تمامًا. ومَضَوْا كُلُّهم دونَ أنْ يتحدّثَ أحدُهم معي.

•

XI

المرأةُ ذاتُ الجَرَّةِ كانت تقفُ عندَ مدخَلِ الكهفِ، تقدّمَتْ نحوي ببطءٍ سريعٍ، وخُطواتُها تُبَعْثِرُ التُّراب المُنْزوي تحتَ رائحةِ ظِلِّ الكَهْفِ. جَلَسَتْ على رُكْبَتَيْها، نظرتْ في وجهي بعمقٍ يمتلئُ حُزْنًا. كانت عيناها ذاكرةَ وجهِها بالنّسبةِ إليَّ. البُرْقُعُ الذي يسكُنُ وجهَها أمْسَكَتْهُ وخَلَعَتْهُ، كان وجهُها مزيجًا من لونَيْن، أبيضَ وأسود، لم تتحدّثْ أبدًا، هزّت رأسَها، ثُمَّ انطلقتْ نحوَ بابِ الكهفِ، صَرَخَتْ في وجهِ أُناسٍ يُغنّون، ثُمَّ دخلتْ مرّةً أُخرى وفي يَدَيْها حفنةٌ من التُّراب، مَزَجَتِ الحفْنَةَ بشيءٍ من الماءِ، ثُمَّ غطّتْ وجهَها بهذه الخَلْطة. لم أفهمْ لِمَ يحدُثُ هذا.

وفجأةً خرجَ صوتٌ من رأسِ الكهفِ يُحَدِّثُني ويقول:

«إجلس خَلْفَ مخلوقاتِ الشِّتاء، وادَّعِ أنَّ أعضاءَكَ تنامُ في مراقِدِ النَّخيل، وطواحينَكَ تبذلُ جهدَها لأُمراءَ يلهَثون كالهزيمةِ. اتركِ المكانَ وغادِرْ إلى حقولِ الرّغوةِ، هُناكَ لن تَخْذُلَكَ أجفانُ

المعصيةِ، وملامحُ الجسدِ. أعرفُ أنَّ في رأسِكِ يَتَهَشَّمُ الزِّلزالُ، فاشْهَقْ كَمَنْ لا يعرِفُ الموتَ، وبرِّئْ ذِمَّتَكَ بما يُسَمّى بالقبور.

لم أعرفْ من أينَ أتى ذلك الصّوت. هَمَسْتُ لنفسي: تُرى، أين أنا الآنَ؟ هذه الحياةُ تحمِلُني معها بعبءِ سنيها، وأحيانًا تركُضُ ورائي تُحاولُ مَسْكَ جسدي بروحانيّةٍ جديدةٍ، لا بُدَّ لي أنْ أسمَعَ الطّيورَ واليابسَة. شَفَةٌ غليظةٌ للبحرِ تقطَعُ عليه سبيلَهُ حين يُفَكِّرُ أنْ يَصلَ الجبلَ. أعرِفُ أنَّ البحرَ يودُّ، ولو مرّةً واحدةً، أنْ يُغادِرَ الماءَ ويَلْبَسَ شيئًا آخر.

وفجأةً تغيّرَ كُلُّ شيءٍ، المرأةُ ذاتُ اللّونيْن تَبَخَّرتْ، والكهفُ امتلأ بعُواءاتٍ غريبةٍ. وحين ذهبتُ إلى الخارِجِ وجدتُ المكانَ خاويًا. حتى البحرُ اختفى، رُبّما صحراءُ مارّةٌ شَرِبَتْهُ، شيءٌ من هذا حَدَثَ على ما أظُنُّ، المهمُّ أنّني واصلتُ المَشْيَ على قدميّ فوقَ رمالِ الصّحراءِ. وبينما أنا ذاهبٌ إلى حيثُ لا أدري مرّتْ قافلةٌ من الجِمالِ تسوقُها امرأةٌ خُيِّلَ لي أنّها في الخمسينَ من عمرِها، وقفتْ وسألتني:

- إلى أين؟

فأشرتُ برأسي إلى حيثُ لا أدري.

ركبتُ أحدَ الجمالِ، وانطلقتُ في الطريق مع المرأةِ، واتّفقتْ معي أنْ أقومَ بِخِدْمَتِها سنةً كاملة مُقابلَ الاعتناءِ بي في رحلَتِها. لم أُمانعْ لأنّني في النّهاية بلا أشياء. لم أعْرِفْ أنّني أركَبُ لحظَتَها مع امرأةٍ شاهقة، هي سَيِّدَةُ السِّحْرِ في الباطنة ولها قصرٌ صغيرٌ قديمٌ

تُحيطُ به مزارعُ من النّخيلِ التي تُوشِكُ أنفاسُها أنْ تخرُجَ بعيدًا عن هذا العالم.

حين وَصَلْنا، عَرَفْتُ أنّها تسكُنُ وحيدةً في هذا القصر، وأنّي العاملُ الوحيدُ. فعلاً، منذُ الصَباح التّالي، بدأتُ بالعملِ في حدائِقِها، عَمِلْتُ بجِدٍّ وكانت هي طيّبةَ القلبِ معي، بشكلٍ كان يُخْجلُني، ومَعَ هذا كان نادرًا أنْ نتحدّثَ، وبينما كُنْتُ في أحدِ الصّباحاتِ أحلِبُ اللّبنَ من ثدي بقرةٍ، وأضعُهُ في الوعاءِ المُخَصَّصِ له، لم أنتَبِهْ حين وضعتُ الوِعاءَ بجانبِ بئرٍ صغيرةٍ، فإذا بكلبٍ أسوَدَ يقتربُ من الوعاءِ ويشرَبُ جُزءًا من اللّبن، عندها ضحِكْتُ من نفسي، وخِفْتُ من أن أُلامَ على هذا الإهمالِ. بعدها حَمَلْتُ اللّبنَ وقدّمْتُهُ لسيّدتي، سألتني عن سببِ نَقْصِ كمّيّةِ اللّبن، أجبتُها بأنَّ أثداءَ البقرةِ لم تكن كريمةً هذا الصّباح. نظرتْ إليَّ نظرةً غريبةً وأخذتِ اللّبنَ ثُمَّ مضت، وتكرّرت تلكَ الحادثةُ أكثرَ من مَرّةٍ اضطُرِرْتُ إلى إخبارِها بقصّةِ الكلبِ الأسودِ، فقالت لي: دَعْهُ يشربْ كما يُريد، ولا تُحاوِلْ مَسَّهُ بسوءٍ فهو زوجي، قالَتْها هكذا ومَضَتْ. وفي إحدى اللّيالي بينما أنا نائمٌ في غُرفةٍ صغيرةٍ فَتَحَ البابَ رجلٌ لم أَرَهُ جيّدًا، وأمسكني بقوّةٍ. حملني بين يدَيْه فما أحسستُ بنفسي إلاّ وأنا طائرٌ في السّماء. لم أكُنْ أُصدِّقُ ما يجري لي. بعدَ وقتٍ ليسَ بالقصيرِ، والصّحراءُ من تحتِنا، رأيتُ جماعةً يجلسونَ وحدَهم. حين رأَوْنا وقفوا فَنَزَلَ بي هذا الرّجلُ إليهِم، فوجِئْتُ حين تَقَدّمَ مُسِنُّهُم وصَفَعَهُ بقوّةٍ وقال:

«ألا تعرِفُ أنّه يعمَلُ لَدَيْها؟ أتريدُ أنْ تقتُلَنا؟ خُذْهُ وارجِعْ به قَبْلَ أنْ تستفيقَ ولا تَجِدَهُ». إلاّ أنَّ أحدَهُم قال: «لو رَجَعْنا به فسوفَ يُخبِرُها، وعليه فلا بُدَّ من وجودِ حلٍّ آخر».

لقد كانوا سَحَرَةً ضعفاءَ لم يجدوا حيلةً في التَّخلُّصِ من هذه الكارثةِ. كانوا يَخْشَوْنَ سيّدتي لأنّها تعرِفُ مكامِنَ ضَعْفِهِم، فسألني المُسِنُّ:

- أتُريدُ الرّجوعَ إلى بلدَتِكَ؟

فهززتُ رأسي مُشيرًا بالقَبولِ. حَمَلَني الرّجلُ نفسُه وطار بي، لم أكُنْ أعرفُ اسمَ بلدتي، فهي ليسَ لها اسمٌ ولا مكانٌ، مع هذا استطاعَ الرّجُلُ أنْ يُنزِلني قُرْبَ المسجدِ نفسِه، ذلك المسجد.

•

XII

كانتِ البلدةُ تشكو من الغُبار الذي يُغطّي وجهها، آه كم هُم تعساءُ حيثُ الغبارُ لا يدخُلُ منازِلَهم أبدًا ليُنَظِّفَ أمْتِعَتَهُم من مَرَضِ النّظافةِ الذي يَدّعونه.

أمّا أنا فقد اتّجهتُ لبيتِنا. كان الهواءُ يدخُلُ منزِلَنا حيثُ يجلِسُ مُدّةً طويلةً يتشبّعُ بالرُّطوبةِ، فيما أُختي كانت تجلِسُ تحتَ جِدارِها، وحين رأتني قالت: «ألستَ أنتَ الصّديقَ القديمَ الذي أعرِفُهُ»؟ ثُمَّ ما لَبِثَتْ أنْ تقدّمتْ نحوي وصَفَعتْني... نظرتْ إليَّ بغضبٍ شديدٍ، ثُمَّ تناولتْ ثوبَ زِفافِ ألْبَسَتْهُ جَسَدَها ووضعتْ يَدَها في يدي، وصِرنا نَلُفُّ البيتَ نُغنّي، حتّى سقطتْ على قدمَيْها.

عَرَفْتُ منها بعد ذلك أنّها تعملُ من ضِمْنِ فرقةٍ نسائيّةٍ، وقد أصرّتْ أُختي لحظَتَها على أنْ أُشارِكَهُنَّ باعتبارِ أنّهُنَّ بحاجةٍ إلى مَحْرَمٍ ولم يَجِدْنَ من هو أفضلُ منّي.

لم أُمانع وإنّما اجتمعتُ بِهِنَّ وكانت تلك المرأةُ ذاتُ البُرْقُعِ وَسَطَهُنَّ.

في الأشهر الأُولى من انضمامي لَهُنَّ بدأتُ أُمرِّنُ صوتي على نوعٍ مُخْتَلِفٍ من الغِناءِ لم تَعْهَدْهُ البلدةُ سابقًا، وكلمات تُعطي للجسدِ فُرْصَتهُ في الفَمِ، فاجأتُ الجميعَ في عُرْسِ سعيد بن سعيد حين غنّيْتُ، لقد أحاطني الذُّكورُ برائِحَتِهم، وقفوا أمامي مشدوهين، فيما النِّساءُ ينظُرْنَ إليَّ بعَجْز، وهكذا توالتِ الأعراسُ حتى أصبحَ الدّيزل بصوتِهِ وجسدِهِ ليلاً جديدًا يُعطي للوقتِ دُروبًا جديدةً تفضَحُ النّهار، تميلُ على الأزِقّةِ بحُدُقِ الجُدران، لم أكن أُريدُ سوى هذا الذي طالما بحثتُ عنه مُنْذُ رحلتي، وها أنا ذا الآنَ أعودُ وأجدُهُ هنا، رُغْمَ أنّه كان غائبًا عنّي منذُ زمن.

•

XIII

مِنْ هُنا بدأتْ حياتي تختلِفُ. ها أنا ذا أركَبُ قواربَ الشّمْسِ، أتوزّعُ كُلَّ صباحٍ على ألسنةِ الجميع: «هل رأيتُم الدّيزل؟ كم كان رائعًا ليلةَ أمس!».

واستطعتُ بعد فترةٍ وجيزةٍ أنْ أكونَ أشهرَ من إمامِ المسجدِ، لقد اكتشفتُ سِرَّ أهلِ البلدةِ، وكيفَ أنَّ للرّجُلِ غريزةً فنّيّةً أكثرَ من المرأةِ، في حين أنَّ الإمامَ يُشَكِّلُ محورًا عاديًّا يفرزُ فنَّ الخوف. هؤلاء النّاسُ يا صديقي، كانوا عندما يسمعونَ الأذانَ فإنَّ كُلَّ واحدٍ منهم كان يُفَكِّرُ في داخِلِهِ متى يموتُ هذا الإمامُ الذي يبيعُ صوتَ المؤذِّنِ الجميلِ في مكانٍ ليسَ له، متى يموتُ الإمامُ كي لا يسمعوا الخُطْبَةَ المُكَرَّرَةَ عن الزّكاةِ التي هم بحاجةٍ لها أكثرَ من حاجتِهِم للإمام نفسِهِ، ويتمنَّوْن مساجدَ كثيرةً في الوقتِ نفسه لتُضفي على الأصواتِ المُوَزَّعَةِ عند الغروبِ روحًا موسيقيّةً تُخَلِّصُهم من عنفوان التَّكرارِ اليوميِّ للبلدةِ الذي يكادُ أنْ يكونَ يومًا ثقيلاً بحيثُ إنَّ البلدةَ تشتهي أنْ يُصيبَ المُؤَذِّنَ مرضٌ في

رئتَيْه، وفي كثيرٍ من الأحيانِ يُصَلّون ويدعون اللّه أنْ يهدِمَ نوافِذَ منازِلِهم، كي لا يسمعوا شيئًا سوى تمتماتِ نسائِهِم وهُنَّ يغتَسِلْنَ في اليومِ الأخيرِ من العادةِ الشّهرية.

لقد كُنْتُ لهم يا صديقي الصَوتَ الذي غَيَّرَ كثيرًا من حياتِهِم بحيثُ إنّني استطعتُ أنْ أُحوِّلَ بيتي إلى حانةٍ صغيرةٍ كُنْتُ أرقصُ فيها مُتَمنّيًا أنْ تبقى عيونُهم تجاهي.

وبدأ كثيرٌ من أهالي البلدةِ يَنْسابون على منزلي كخيوطِ الرّمل، يتشبّعون بوَجَعِ الفجرِ، ثم يرجِعُون إلى منازِلِهم محمولينَ فوقَ أقدامِهِم وقد ذابَ شيءٌ من الرَّمْلِ في نعالِهِم واختلطَ بها العَرَقُ، حتى إذا دَخَلَ أحدُهم منزلَهُ عَرَفَتِ الزّوجةُ أنَّ زوجَها قد وَصَل. ويحدُثُ في أحيانٍ كثيرةٍ أنْ تتشابَهَ رائحةُ العَرَقِ والرّمْلِ إذا نَفَخْتَ فيها قبلَ خروجِهِم، عندها يُمْكِنُ لأيٍّ منهم أنْ ينامَ مع أيّةِ امرأةٍ في البلدةِ لأنّها قد تَظُنُّهُ زوجَها.

لقد استطعتُ، في فترةٍ وجيزةٍ، أنْ أُشَكِّلَ فرقةً كبيرةً، نُصِّبْتُ فيها رئيسًا روحيًّا، ونَصّبْتُ امرأةً أسميتُها الماما، كانت شديدةَ البأسِ والانضباط، وكانت تَحُجُّ كُلَّ سنةٍ، تدعو لنا برحْمَتِهِ. كما جعلتُ رجلاً آخرَ مسؤولاً عن النِّظامِ أسميتُهُ الخيزران، وجعلنا من الطّبْلِ آلةً للعطاءِ، وعلى كُلِّ فردٍ من الفرقةِ أنْ يمسَحَ الطّبْلَ بيدِهِ قبلَ أنْ يجلِسَ ويُشاركَنا الغناءَ، وعلى الخيزرانِ أنْ يضرِبَ بعصاهُ كُلَّ من لا يُشارِكُ بفاعليّةٍ، وكانت الماما تشكو دائمًا من عدمِ قُدْرَةِ

الخيزران على تنظيمِ الفرقةِ فَخَوّلْتُها أنْ تضرِبَهُ، فما كان منها في الفرحِ القادمِ إلاّ أنْ فعلت.

وذاع صيتُ الفرقةِ في البلداتِ المُجاورةِ والمُدُنِ والأقاليمِ البعيدةِ. سمعوا عن شموسٍ جديدةٍ تُشرقُ بشكلٍ جديدٍ. انفتحت لنا بيوتُ المُحافظين والأثرياء، وأصبحنا ملوكَ البلدةِ نُفَرِّحُها ونُبْكيها.

لقد وصلتُ إلى لحظةِ فرحٍ لا يُمْكِنُ وصفُها، حتّى موعدِ تلكَ اللّيلةِ، ذلك الحُلُمِ الذي جاءني فيه رجلٌ عجوزٌ يَلْبَسُ خوذةَ وعباءةَ والدي، كان منامًا غريبًا، قال لي: «عليكَ أنْ تُوقِفَ كُلَّ ما قُمْتَ به وإلاّ أصبحتَ عاجزًا».

فَزِعْتُ من شكلِ الرّجلِ الذي صار يأتيني كُلَّ ليلةٍ. استمرَّ ذلك أشهُرًا عديدةً وبالطّلَبِ نفسِهِ كان يُحَدّثُني، إلاّ أنّه في المرّةِ الأخيرةِ جاءني ومعه شَخْصٌ أعرِفُهُ، جاءَ بوالدتي كي تَطْلُبَ منّي ذلك، فَظَنَنْتُ أنّها الشّيطانُ ورفضتُ طَلَبَها، فأمَرَها بالانصرافِ وهَتَفَ بعد ذلك لرجلٍ لا أعرِفُهُ، يحمِلُ بين يَدَيْه بحرًا صغيرًا وعنكبوتًا، وأمرَهُ أنْ يضرِبَ قدميَّ، حتى أحسستُ بألمٍ شديدٍ. قُمْتُ من النّوم فَزِعًا فوجدتُ قدميَّ مشلولتَيْن.

آه لو تعرِفُ يا صديقي كم كانت تلك اللّيلةُ تُعَبِّرُ عن بدايتي!

•

XIV

تمدّدْتُ ثلاثةَ أشهرٍ على الفراشِ، لم أرقصْ من يومِها، ولم أذهبْ إلى أيّ فرحٍ، وبدأ أهالي البلدةِ يتذمّرون ويَملّون من غيابي، حتى جاءَ عُرْسُ ابنةِ الوالي، فبعثَ إليَّ من طَرَفِهِ أنْ أحضُرَ عُرْسَ ابنتِهِ لأُغنّي، فرفضتُ. في اليوم التّالي سمعتُ حشدًا كبيرًا من الأصواتِ ونسوةً يُهَلِّلْنَ. أسرعتْ جارتُنا تُخبِرُنا أنَّ الوالي قادمٌ يدعوني بنفسِهِ إلى فَرَحِ ابنتِهِ. لم تُكْمِلْ جارتُنا حديثَها إلاَّ والجنودُ يفتحونَ البابَ ويصطَفّون تحيّةً للوالي في منزلي فيدخُلُ الوالي بعباءتِهِ الذهبيّةِ وغترتِهِ البيضاءِ يعلوها عِقالٌ ذهبيُّ اللّونِ، يجلِسُ أمامي مُقَبِّلاً رأسي ثم يقول:

– أعرِفُ أنَّ عجزَكَ الذي تدّعيه كاذبٌ لأنّه عجزٌ جسديٌّ، بينما نحن عَرَفْنا الدّيزل أقوى روحٍ تسكُنُنا. إنَّ ابنتي يا سيادة الدّيزل مُصِرّةٌ على حضورِكَ لكي تُغَنّي في عُرْسِها.

ثم قام بتلبيسي عباءَتَهُ وغترَتَهُ وعِقالَه كهديّةٍ حتى ألبَسَها في عُرْسِ

ابنتِهِ، فأشرتُ برأسي مُرَحِّبًا، ثم نَهَضَ وأمرَ جنودَهُ أنْ يصنعوا لي حَمّالةً من أجودِ الأخشابِ، وذهبَ آملاً من الدّيزل تنفيذَ وَعْدِه.

كُلُّ هؤلاءِ الولاةِ يعيشونَ زَمَنَ المَعْصِيَةَ الجديدةِ، يقتربونَ من التّسلُّلِ نحوَ الحياةِ الطبيعيّةِ، يُناورونَ ساحاتِ الوجوه، يقتلعونَ أشجارَهُم من أفخاذِ النِّساء ويجلِسون فوقَ كُتَلِ الشّمس.

وجاءَ يومُ عُرْسِ ابنةِ الوالي، وأقبل أربعةٌ من فرقتي ليحملوني على الحمّالةِ، وفي الطّريق كان الناسُ ورائي يركضون. رَتْلٌ منهم يُحاولُ لَمْسَ يدي لأُبارِكَ له خطيئَتَهُ، حَشْدٌ لم يَتَمَتّع به الوالي من قَبْلُ، والفرقةُ تَلُمُّني بصوتِها من جهاتي الأربع. ها هم أصحابُ المالِ ينتظرونني، ونساؤهم في لَهْفَةٍ فضوليّةٍ ليرَوا الدّيزل، اقتربنا من القَصْرِ، كانوا أربعةً يحملونني بينما أنا لابسٌ عباءَةَ وغترةَ وعِقالَ الوالي. فُتِحَ بابُ القصرِ لنا، وحينَ أطلَّ وجهي من البابِ، صَرَخَتِ النّاسُ باسمي، وبكى كثيرٌ منهم فرحًا. ها هو المشلولُ أيُّها الحمقى يُضاجِعُكُم على مرأى منكم. كانوا يرقصون حولي ويُهَلِّلونَ. لقد طَلَعَ فجرُ هذه البلدةِ، لقد عادَ مرةً أُخرى، وعلى النّاسِ أنْ تَسْتَمِعَ لخُطْبةٍ مختَلفَة هذه اللّيلةَ بعيدةٍ تمامًا عن خُطْبَةِ ذلك الذي ينامُ الآنَ قانطًا بين دهاليزِ الزّوايا يُحاول أنْ يُغْضِبَ الدّيزل أكثرَ من الغضبِ الذي أعيشُهُ هذه اللحظة.

كنتُ أقولُ دائمًا إنَّ المعصيةَ تَبْغُ الدّمِ، تُحاوِرُهُ كي يسقُطَ فوقَ أضلُعِ الهواءِ مُتَدَثِّرًا بشمّاسةٍ تُظَلِّلُ قدمَيْهِ وتَرْزُقُه مطرًا.

إقتربنا من وَسَطَ القصرِ، والنّاسُ من حولي يلتَفّون كأوراقٍ دالية،

والأعضاءُ تُلَمْلِمُ أشلاءها فوق جسدي. اقتربنا من وَجَعِ الطُّغاة.

ها هم أربعةٌ يحمِلونَني فوق أكتافِهِم البعيدةِ. سأُغنّي بعدَ قليلٍ ثُمَّ أخرجُ طاغيةً جديدًا ووالِيًا جديدًا يَلْبَسُ المَعْصيةَ ويتنفّسُ فحولةَ الرِّجال.

بعدَ سنواتٍ مرّتْ كأنّها يباسُ الذّاكرة، لم تَعُدْ شُهْرَةُ الفرقةِ تَسَعُ البلداتِ والمدنَ والأقاليمَ، بل تعدّتْ وأصبحتْ جزءًا من الذّاكرةِ الشعبيّة.

ها هم وُلاةُ كُلِّ بلدةٍ يتنافَسون في تشكيلِ فرقةٍ أهمَّ من فرقتِنا ليُبْعِدوا الذّاكرةَ الشّعبيّةَ عن معاصيهم. ها هم الوُلاةُ يعبرونَ متاحِفَ الكُتُبِ وينادون بأعلى أصواتهم كَمَيْتٍ قديم، وبُرْغم ذلك لم يستطعْ أحدٌ أنْ يُقَدِّمَ ما قدّمَهُ الدّيزل. وأصبحَ النّاسُ في كُلِّ مكانٍ يُريدونَ الدّيزل، الأمرُ الذي أضرَّ بكيانِ سُلْطَةِ الولاةِ ورائِحَتِهِم المُزَيّفَةِ، واجتمعوا وقْتَها وأصدروا قرارًا بوقفِ هذا النّوعِ من الفنِّ، وسنّوا قوانينَ تَحُدُّه.

لم يكن هذا القرارُ قويَّ التّنفيذِ في البدايةِ، لكنْ عندما تَمَّ تطبيقُهُ بإصرارٍ أصرَّ الجميعُ أن يلتَقوا في مكانٍ مُشْتَرَكٍ يتحاورون ويُوكِلون أحدًا لحلِّ هذه الأزمة، وقد تَمَّت دعوتي لذلك الاجتماعِ، فَرَفَضْتُ، لكنّهم أصرّوا على ذلك، وتمَّ تحديدُ المكان.

أعترفُ يا صديقي أنَّ الحياةَ كبرياء بسيطةٌ بسيطةٌ تأكُلُنا بسذاجَتِها المُمْتَدَّةِ، وأنّه لا امرأةَ... بإمكانِها أنْ تحتَوِيَني وتُغَيِّرَ ما يدورُ في تخومِ رأسي، هذا الفضاءِ الشّامِخِ الذي يبدو من الوهلة الأُولى

بحرًا يتّسِعُ لأنفاسِ البشرِ، يجمَعُهم تحتَ ظلِّهِ الأزرق، يَعْبُرُ مِساحاتِ جسدِهم ويَرُشُّ جنونَهم بقمرِه.

آه يا صديقي لو تعرفُ كم أنَّ الفضاءَ جامدٌ، وأنّه بإمكان قدمي أن تحبوَ نحوَ الضّوء، في حين أنَّ الفضاءَ أخرسُ يُوهِمُنا بتوهُّجِ الأزرقِ ويُنافِسُ البحرَ كي يمحوَهُ من ذاكِرتِنا.

في يومِ الاجتماعِ، وقتَ ذاكرةِ الفجرِ، طَرَحْنا أمامنا طريقَ القريةِ الخارجيَّ، استلقينا على قافلةِ الرّملِ السّاخن، كانت تُحْرِقُ أقدامَ الرِّفاقِ وتُحَرِّكُهم كما لو أنّهم آلةٌ بُخاريّة، في حين أنّها لم تستطعْ أنْ تُحرِقني لأنَّ قدميَّ احترقَتا بوهمِ رائحةِ الحُلُمِ الذي لا يرضى أنْ يرجعَ مرّةً أُخرى بقدمَيْن جديدتَيْن تُناوِران أحشاءَ الماءِ في راحةِ الشتّاء التي طالما قَدّمَتْها هديّةً للربيع.

ها هي الشّمْسُ تحمِلُ قوالبَ النّهار وتُخفيها تحتَ إبطِها الأحمرِ، وصلا لحظَتَها إلى منطقةٍ اصْفَرَّ النّخيلُ فيها، وتحوّلَتْ يُبوسَةُ النّبْعِ إلى تُرابٍ مُجَمّدٍ، صِرنا نزحَفُ فوقَهُ كي نَصِلَ خاتمةَ النّهارِ بأطرافِنا ونلتقيَ بكُلٍّ من وُلِدَ حركةً للتّقوّس وشالاً أسمرَ يُظَلِّلُ اللّيلَ لكنّه طالما يُحاولُ أنْ لا يُوقِظَه.

إستقبلوني بفرحِ الماءِ حين يتدفّقُ مُثرثرًا ببراءةٍ، لقد أحسستُ وَسَطَهم بصداقتي العظيمةِ للحياةِ، أحسستُها بأفضلَ من كُلِّ التّوجُّهات التي لقيتُها في عُرْسِ بنتِ الوالي. كانوا صادقين معي في فرحِهِم، لأنّهم يعرفون أنّني قوتُ هذا الفنِّ وحصارُهُ الذي يمتدُّ حتى آخرِ أنفاسِ هذا الحصارِ الذي طالما يلعبونَ ويرقصونَ به

كنوارِسِ الصّحراءِ، ويُغَيِّبونَ آمالَهم تحتَ ظِلالِ السَّعَفِ، مُسْتلقين بأجسادِهِم كزهور الأوصياءِ والعباقرةِ ،مُنْفتحين بثغورِهِم على غموضِ الحياءِ، مُفْرغين خُطاهم في حِراثةِ الرَّملِ، لا يَعْبأونَ بقافلةِ الدّيزل وإنّما برائحةِ الدّيزل حين تَمُرُّ على عَبَقِهم، فتشطُرُهم جزءًا واحدًا يُفكّكونَ منه آمالَهم، ويَتَقَبّلونَ هدايا السّماء بلعنةٍ يُساومون بها الأرض بشقائِهِم، ويلعنون مراكضَ الأعشابِ فوق جبالِ المعصية.

لا بُدَّ أنْ يكونَ لهذا النّهارِ ضوءٌ مُخْتلفٌ، يُسقِطُ الشّمسَ في متاهاتِ الوجعِ، هذه الشّمسَ التي ما زالت، ومنذُ الأزلِ، تبكي ضوءًا، ونحن نرى ونتدّفأُ ببُكائِها، مُعتقدين أنّها ضاحكةٌ، مبتسمةٌ، تنامُ كما ننامُ، ولا أحدَ يتساءلُ: أيٌّ منّا ينامُ قبلاً، نحنُ أمِ الشّمْسُ؟ فقد تكونُ الشّمْسُ عند غروبها تتمدّدُ على السّريرِ وهذا الاحمرارُ منها هو إشارةٌ إلى عشيقِها الذي يسكُنُ الأرضَ ليصعَدَ فوقَ آخرِ شُعاعٍ لها، ينامُ معها ثم ينزِلُ عندَ الصّباحِ مع أوّلِ شُعاعٍ، ساحبًا معه لونَ الجبالِ والأشجار النّاعسة.

كانوا جالسين تحت شَجَرَةِ سِدْرٍ، تحوي بظلّها المكانَ، وينحدِرُ الجبلُ فوق رأسِها. حين تَقَدّمْتُ نحوهم قاموا ووضعوا نِعالَهُم فوقَ رؤوسِهم، وظلّوا يرقصونَ تحيّةً لي، مُعتقدينَ أنَّ الآلهةَ تمشي فوقَهُم وتَلْبَسُ نعالَهم، وعليهم أنْ يرقصوا بها تحيّةً لي، بعدها هدأوا هدوءًا طويلاً، ضجَّ المكانُ، ثم قام أوسَمُهُم وقَبّلَ كتفي قائلاً:

نحن وإنْ كانت الفرحةُ تَغْمِسُ أجسادنا، فإنّه لا يُمْكِنُ لنا أنْ

نقول سوى أنّك يابسةُ الصّحراءِ المُثْمِرَةُ، وجهُ البحرِ الممتلئُ ضجرًا، سحابةُ الأرض وهي تمحو غُبارَها، نافذةُ أعيُننا التي ترى الضَّوءَ يُدَمِّرُ ضحاياه، آلهتُنا المُمْتَدَّةُ حتى آخرِ الرّبيع.

نحن وإن كانت الصّحراءُ أشبَعَتْنا بهمومِ التُّراب وقَحْطِ الشِّتاءِ، نحن، ما زِلْنا نَنْبِضُ بك، بكُلِّ تفاصيلِنا الصغيرةِ، نُعانِقُ الأشياءَ بمُرادها، وننتَقِلُ من جسدٍ إلى جسدٍ لنراك تَتَلَذَّذُ بموتِ السّماء، فأنتَ قارِبُنا الذي نَعْبُرُ به هذا التّيهَ، وأنت فَمُنا الذي يَنْطِقُ بلُغَةِ الحكمةِ، وأنت أُذُنُنا التي تُمازِجُ الأصواتَ بشفافِيّتِها.

مُنْذُ زمنٍ ونحن ننتَظِرُكَ، لتَمْسَحَ على رؤوسِنا، تُبارِكَنا اللّحظةَ، تنتَشِرَ على أجسادِنا كما لو أنّك الجِلْدُ الذي لم يَلْتَحِمْ مع الجسدِ إلى الآن.

نُرَحِّبُ بكَ بُكلِّ ما ينبتُ في داخِلِ مرايانا، لأنّكَ وجهنا الذي لا ينامُ أمامَ التّدخُّلِ الظّلاميِّ للّيلِ، لا يَسْرِقُهُ اللّيلُ، وإنّما يُعيدُ تكويناتِهِ داخلَ مُجْتَمَعٍ سقيمٍ، فاشِلٍ في مائِه.

ثم قامَ ومَسَحَ الطّبلةَ الموضوعةَ في وَسَطِ الجلسةِ، بعدها استلقى كُلُّ الجالسين على بطونِهِم، وأخذوا يلحسونَ الأعشابَ الصّغيرةَ بأفواهِهِم، لأنّهم يَرَوْنَ أنَّ هذا العِشْقَ الكامِنَ فيهم ليس للأرضِ وإنّما لكُلِّ شيءٍ أخضر.

– بعد قليل يا صديقي اصطفّوا تجاهي وصمتوا بانتظارِ حديثي، اقتربتُ منهم، فأجلسوني على كُرْسِيٍّ صُنِعَ من خَشَبِ السِّدْرِ وُضِعَ في طَرَفٍ لا تُظَلِّلُهُ الشّجرةُ، مُعتقدينَ أنَّ الشمسَ وأنا فضاءُ

هذا الكَوْنِ، ثم صَمَتوا بكُلِّ تضاريسِهِم لكي يسمعوني، فقُلْتُ لهم:

من يَظُنَّني السّماءَ فَلْيَقِفْ ومن يَظُنَّني الأرضَ فَلْيَبْقَ جالسًا ومن يَظُنَّني الدّيزل فَلْيَرْقُصْ.

فما لَبِثوا حتّى رقصوا جميعُهُم عدا امرأةٍ واحدةٍ كانت تجلِسُ خَلْفَهُم، تقدّمت نحوي وقالت:

«يُقال إنّك الرّابطُ الوحيد ما بينَ الأرضِ والفضاءِ، الحَلُّ الوسطُ لجميعِ آهاتِ الشّهْوةِ، تَحْرِمُنا الرّجالَ فلا يبقى أمامنا سوى أغصانِ الشّجرِ نلعَبُ فوقَها، ونحنُ من عَبَدَ البِكْرَ وصلّى في وجهِ الدّياناتِ مُحْتشمًا».

فقلتُ لها: «الذَّكَرُ يا عزيزتي قالَبٌ يُوجَدُ بداخِلِهِ بحرٌ صغيرٌ يُثَرْثِرُ ما بينَ جسدِهِ، يُعَلِّمُهُ أنَّ الأُنوثةَ هي الاستمرارُ، وأنَّ المرأةَ هي تكوينُنا الأوّلُ، فأنتِ كما أنتِ، أنثى تُعَطِّرُ هذا النّهارَ بأنفاسِها وتَقْبَلُ صلواتِ الذُّكورِ، كي تُعيدَ الذّكورَ إلى حقيقتِهِم وتُعيدَهم إلى أصلِهِم، إلى المرأة».

إسمعوا يا رفاق:

«لقد باتَ من المُستحيلِ أنْ نبقى ذيولاً لهذه الذّئابِ التي تَكْسِرُ عِصيَّنا كُلّما حاولنا الوقوف، نحن الذين مَزّقْنا جباهَ البكاء ورميناها في وادٍ تحومُ الذّئابُ في داخِلِهِ بوحشيّةِ الغابات، كُلُّ ما نطلُبُهُ أنْ نَتَفَهَّمَ الموتَ ورؤوسُنا فوقَ الطاولةِ وليسَ تحتَها، أنْ

لا نُكَوِّمَ الحجارةَ كي نُغْلِقَ أفواهَنا بها.

آهٍ لو تعرفونَ ما حَلَّ بي حتّى استطعتُ أنْ أُمسكِ هذه اللّحظة».

كانت البدايةُ هواءً يدخُلُ جسدي، يتسلّقُ مخارِقَ صوتي، ثمّ يخرُجُ من أنفاسي. كُنْتُ عاديًّا حدَّ المِساحاتِ النّاشفةِ، ودائمًا أنظُرُ للنّومِ بشَبَقِ العينِ العمياءِ، يرتَفِعُ رأسي إلى الأعلى ويسقُطُ على الرِّمالِ كغيمِ المطرِ المُتَفَرِّجِ باستمرارٍ على هذه الأرضِ، ولا يُعطيها سوى أنْ تَمْسَحَ عَرَقَها من جَفافِ الجَهْل.

إنكسرتِ الوجوهُ في وجهي، وتساقطتِ النّوافذُ. جَفَّتْ أثداءُ النِّساءِ في رائحةِ فمي، حتى أخرجتُ لها شهادةَ وفاءٍ لأُقنِعَ نفسي بأنَّ بصماتِ المرأةِ ذاكرةٌ تلهَثُ وراءَ عقولِنا، نَصْنَعُ منها فَخّارًا ليليًّا، وَنَحوكُها في الصّباح مِثْلَ مدينةٍ تُظَلِّلُ رؤوسَ المُسافرينَ وتَسْقُطُ في بركانٍ صامتٍ عندما ينفجِرُ تتساقَطُ منه قطراتُ ماء.

هذه الحياةُ يا رفاقي مطويّةٌ بأوراقِ الأجسادِ، والدائرةُ الوسطى مَدْخَلٌ لكُلِّ التّماثيلِ العاطفيّةِ. كُنْتُ أغتسِلُ بالهواءِ وأعلِكُ الماءَ لقناعتي بأنّني القادمُ ليرفَعَ العَتَمَةَ عن هذا الإنسان.

أُنظروا جسدي، ها هو أمامَكُم الآنَ مليئًا بالرُّكّابِ ولا أحدَ منهم يَوَدُّ النّزولَ منه، لأنَّ بداخِلِهِ انتصاراتِنا، أُغنياتِنا، حكاياتِنا عن التقاطِ الحَصى، والحقولَ المليئةَ بالعباءاتِ البيضاءِ التي تخافُها الذِّئابُ. وكُلُّ هذه التجاعيدُ التي تظْهَرُ في جبهتي ما هي إلاّ أُناسٌ يُحْتَضَرون في رأسي ويَخْرجون من جبهتي مهزومين.

بعدَها يا صديقيَ الأبكم، وقفوا وأخذوا يدورون حولي، وصوتُ الطّبْلِ يَهُزُّ نجومَ السّماءِ فتتساقَطُ واحدةً واحدةً في جيبي، ثمّ أُوزّعها عليهم أوسمةً كي يُحَلّقوا بها وقتما يشاؤون بعيدًا عن الأماسي الفاترة.

كانوا يتشاجرون مع الأشجارِ في عِناقِهم للأرضِ بصورةِ الحياةِ وكأنّها فاجعةٌ لقُبْلةٍ حُرموا منها ألفَ سنةٍ، يُغيرونَ على مدافِنِ القبورِ كي يُحيوا بها ما تبقّى من الأحاديثِ القديمةِ، ثُمَّ يشربونَها قديمةً، رؤوسُهم كورودِ اللّيل، مع ذلك كانوا يتساقطون مع السّماءِ، مُخْتَلِطَةً أجسادُهم برائحةِ الهواءِ كي يصِلوا إلى عُمْقِ التُّراب ويُقَبّلوا الماءَ الدّاكنَ فيها بشرفِ الجذور.

ها هو الوقتُ يُشيرُ إلى انتخابِ أوّلِ رئيسٍ لهذه الفاكهةِ. المكانُ الذي نحنُ فيه الآنَ بعيدٌ تمامًا عن كُلِّ الأقاليمِ المحْتَرِقَةِ بأمجادِ الطّين.

قال أوّلُهم:

«علينا أنْ نَتَفَهَّمَ المُشكلةَ بمنطِقِ الأرضِ، والواقعُ المطروحُ همٌّ جديدٌ نرفُضُهُ بأشكالِ الحُبِّ كَافّة. نحنُ لا نُريدُ رئيسًا يُوَزِّعُنا، نحن نُريدُ رئيسًا يتوزّعُ علينا، يُغَيِّرُ أزْمِنَتَنا بكَهنَتِهِ العِظامِ، يُحاورُ أجسادَنا بلمساتِ فَمِهِ، بالتّحاضُنِ المُجسِّدِ ما بين الطُّرُقِ والأزقَّةِ، نحنُ البيوتُ التي تَرْبُطُ الحياةَ مع جَسَدِ الإنسان».

قال ثانيهم:

«لقد تَعِبنا من السّعادةِ المُزَيّفةِ، تَعِبْنا من شَهيقِ السّماءِ العُليا فوق رؤوسِنا، لا ننامُ إلاّ والوسادةُ تحتَ رؤوسِنا، إنّنا نرفُضُ هذه الوسادةَ. إنّها تُوضِحُ عَجْزَ الرّأسِ في عمليّةِ النّومِ، فللرأسِ شوارعُ تبدو غائبةً عن الأسرَّةِ، لكنّنا استطعنا أنْ نُلاقيَها في منتصفِ الجَسَدِ، وبأساوِرِنا المُتْعَبَةِ بكينا على يَدَيْها كي تُسَجِّلَنا ذاكرةٌ في عَبَقِ الرّائحة».

قال ثالثُهُم:

«مَنْ تُرى يُمكِنُهُ أن يُضَلِّلَ تَمَزُّقَ الأجسادِ عن رائحةِ العقلِ؟ الجسدُ مرآةُ الصّحراءِ يَعْكِسُ سُمْرَتَهُ، والبحرُ نافذةُ الجسدِ يَعْكِسُ فراغَ طُرُقِنا، فإنْ كانَ البحرُ شارعًا أزرقَ، فنحنُ الصّحراءُ، فنّانٌ يُمَشِّطُ اللّونَ الأزرقَ ليخلُقَ منه المطرَ والأشجارَ، وكُلَّ الأشياءِ الحمقاءِ في زَمَنِ المعصية.

إتّفقنا مع البحرِ بُكلِّ مُعْطياتِهِ الدُّنيويّةِ. لقد تمادَوْا كثيرًا في عِشْقِ البحرِ، حتّى كادوا أنْ يُغرقوه، لولا أنَّ جَسَدَكَ يا سيّدي الدّيزل كان يَسْبَحُ لَحْظَتَها، فأنقذَ البحرَ من قافلةِ المُدُنِ المارّة».

قال رابعُهم:

«النّجمةُ التي تسكُنُ رأسَكَ يا سيّدي لا بُدَّ أنْ تعرِفَ أنَّ لهذا الكونِ خبايا صَنَعَها المولى كي نَبْحَثَ عنها، وأظنُّ أنَّ كُلَّ

تفاصيلِ الكَوْنِ جَسَدٌ واحدٌ، لكنّهُ جامدٌ يستيقظُ وينامُ. ساعةُ الكَوْنِ يا سيّدي الدّيزل هي الشّمس».

ها نحن بعيدًا عن الطّاولاتِ التي تَرْتديها المنازلُ والقصورُ، نجلِسُ بعيدًا عن خَشَبِ الموسيقى المعتاد، نَفْتَحُ جَسَدَ الظّلامِ بمحاولاتٍ بسيطةٍ من أعيُننا، لكي نرى ما وراءَ الضّوءِ حيثُ ينتحرُ مُشتَعِلاً ببريقِ الجسدِ. لقد بدأوا بنَبْشِ التُّرابِ ورَسْمِ طاولاتٍ رمليّةٍ وضعوا عليها أوراقَ أجسادِهِم وكراسيَ صغيرةً من الأحجار كي لا تقسوَ أردافُهُم على هذه الأرض، ثم قام واحدٌ منهم ووزّعَ على كُلِّ فردٍ غصنَ شجرةٍ وطَبْلاً، وعلى كُلِّ واحدٍ منّا أنْ يَدُقَّ الطَّبْلَ مرّةً واحدةً ثم يرمي بالغُصْنِ تَحْتَ قَدَمِ الشّخْصِ الذي يُريدُهُ رئيسًا. لم تَمُرَّ لحظةٌ واحدةٌ، إلاّ والأغصانُ قد تَجَمّعتْ تحتَ قدميَّ، أمّا غُصني فلقد رَمَيْتُهُ إلى السّماءِ مُنْتَحبًا إيّاها.

وَقْتَها عَرَفْتُ أنّني الرئيسُ المُختارُ، وأنّه لا مَفَرَّ من أنْ أرحَمَ هذه الأُمَّةَ من بؤسِ الجُدرانِ المُتناثِرِ في القرى.

ها أنا أحمِلُ معصيةً جديدةً وقلبًا جديدًا. أحمِلُ تدفُّقاتِ الدُّخانِ في لوحاتِ النّار. ها أنا أستيقظُ مرّةً أُخرى والطّاولاتُ لا ترفُضُني بل أرفعها وَقْتَما أشاءُ وتشاءُ النَّجمةُ التي تسكُنُ رأسي. ها هي الشّمسُ تُمَزِّقُ أُذُنَ اللّيلِ بدقّاتها المُعتادةِ، ترى لم لا تَسْتَغني الشّمْسُ عن لونِها الأصفَرِ المُمِلِّ هذا وتُعطينا بَدَلَ اللّونِ رائحةً تَصْنَعُ من صباحِنا بديلاً للقهوةِ، وتُعطي لطُرُقِنا ابتسامةً جديدةً،

عندها أعِدُكَ بأنّني أوّلُ من سَيَمْشي فوقَ الرّائحةِ ولا يَسْقُطُ، لأنَّ للرائحةِ همًّا أعمى يرانا ولا نراه؟

البلدةُ كانت تنتظرني، تَنْتَظِرُ أنْ يأتيَ مساؤها يُغَرْبلُ اللّيلَ بشمعدانه، وأذكُرُ أنّكَ لَحْظَتَها كُنْتَ تتمشّى تحت سِدْرَةٍ، وكانت أشواكُها تتصارَعُ مع الأوراقِ، بينما أنتَ واقفٌ تكذِبُ على القريةِ وتُوهِمُها بأنَّ لسانَكَ نَسيتَهُ في البحرِ، وأنَّ البحرَ لم يَعُدْ إلى الآن. كُنْتَ أحدَ البحّارة الذي سَرَقَ موجةً وخبّأها في بيتِهِ، تعتقِدُ أنَّ السُّفُنَ التي نَظّفْتَها كخادمٍ لا بُدَّ أنْ تغرَقَ، عندها يكونُ بإمكانِكَ الغوصُ في البحرِ، تَسْرِقُ لسانَ بحّارٍ ثرثارٍ تُعَوِّضُ به عن ذاكراتِكَ السّابقة.

كم كُنتُ لحظَتَها مُشتاقًا إلى جسدِكَ. كُنتُ أشعرُ أنَّ ردفَيَّ يحتاجان إلى قليلٍ من القهوةِ. انتعلتُ الرَّمْلَ وأقدمتُ، خَلْفَ ظهري، تحت تلكَ الشّجرةِ، كُنتَ أوّلَ فاكهةٍ استقبَلَتْني في البلدة.

وبعدَ أيّامٍ قليلةٍ، بينما كُنْتُ مارًّا بجانِبِ هذا المسجدِ، فوجِئْتُ بعابِرِ السّبيلِ مرّةً أُخرى، حين رآني بَدَتْ على ملامِحِهِ صورةُ المُتْعَةِ. تذكّرْتُهُ جيّدًا بالرُّغْمِ من أنَّ ملامِحَهُ تغيّرت تمامًا، وأصبحتْ جُزءًا من ذاكرةٍ جديدةٍ، حين اقتربتُ منه، نَظَرَ إليَّ وصَمَتَ بهدوءٍ عميقٍ، لم يَقُلْ شيئًا وإنّما أشارَ بإصبَعِهِ إلى المسجدِ نفسِه.

آه لو تعرِفُ يا صديقي من أنا؟ أعرِفُ جيّدًا أنّني أتْعَبْتُ أُذنَيْكَ هذه اللّيلةَ كثيرًا، لم يَعُدْ باستطاعتي الحديثُ. هيّا هيّا يا صديقيَ الأبكمَ قد اقتربَ الفجرُ قُمْ، قُمْ وأَذِّن!

•

الدّيزل

بسبب قناعته بدورها الريادي، اختار الشاعر والكاتب الإماراتي ثاني السويدي، في العام ١٩٩٣ ، تسليم مخطوطه الديزل لدار نشر بيروتيّة؛ ومنذ ذلك العام تتالت الطبعات في لبنان ومصر والعراق؛ فهذا الكتاب العاصي على التصنيف، المكتوب تحت جنح ليلٍ عربيّ لا انقضاء له، يأخذ قارئه في رحلة شيّقة إلى عالم سرّيّ وسفليّ شارف على الانقراض.

ثاني السّويدي

كاتب وشاعر من الإمارات العربية المتّحدة اختار الأدب ـ جوار مهنه الأخرى ـ نهج حياة.

له:

ليجفّ ريق البحر . شعر. صادر عن اتّحاد كتّاب وأدباء الإمارات، ١٩٩٠.

الأشياء تمرّ . شعر . صادر عن دار الانتشار العربي، ٢٠٠٠.

ISBN 9953- 11-037-9

خطوط الغلاف بريشة علي عاصي

دار الجديد